رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

أثر الإرهاب

في تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي

إعداد

الشيخ عبد الحق بن ملا حقي التركماني

مدير مركز البحوث الإسلامية في السويد

مقدم إلى

المؤتمر الإسلامي العالمي

لمكافحة الإرهاب

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين

الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود

مكة المكرمة

٣ - ٦ / جمادى الأولى / ١٤٣٦ هـ ، الموافق: ٢٢ - ٢٥ / فبراير / ٢٠١٥ م

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩ – الفاكس: ٥٦٠١٣١٩ – ٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة – مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

البريد الإلكتروني للإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

conferences@themwl.org

واتس أب : ٠٠٩٦٦٥٠٣٣٩٦٣٢٠ : whatsApp

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين، أرسله الله بالهدى ودين الحقِّ رحمةً للعالمين، فصلواتُ ربِّي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مدخل:

أصبحت العمليات الانتحارية، والتفجيرات المدمِّرة، واستهداف المدنيين، وانتهاك حرمات المساجد، والاعتداء على دور العبادة والمستشفيات والمساكن، وفُجَاءة الآمِنين في مجالس الأفراح والعزاء، واستخدام أساليب الغدر والخيانة، ونقض العهود والمواثيق والاستخفاف بالدماء؛ من أسوأ ظواهر الحياة المعاصرة، التي تهدِّد القواعد والقيم والأعراف الدينية والأخلاقية والحضارية في العلاقة بين بني آدم على وجه هذه البسيطة. وقد اصطلح الساسة وأهل الرأي والإعلام؛ على تسمية هذه الممارسات المسيئة بـ: «الإرهاب»، وصارت هذه الكلمة -وإن اختُلِف في حدِّها - دالةً على كل ما هو ظالم فاجر، وبشع قبيح، وخبيث مدمِّر، من سلوك أطراف الصراع والنزاع والقتال، سواء كان مرتكبوه أصحابَ حقٍّ -بوجهٍ من الوجوه- أو لم يكونوا أصحاب حقٍّ، وسواء كان لهم تأويل أو شبهة، أو كانوا موغِلين في الجناية والبغي، فالإرهاب -وكذلك منفذوه ومشجعوه والمحرضون عليه والداعمون له- كلُّهم في الإثم سواء، يجب إدانتُهم والتبرؤ منهم واستنكارُ أفعالهم، لهذا رأينا كثيرًا من علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم - بله أصحاب السلطة والقرار فيهم - يبادرون إلى مواجهة ظاهرة «الإرهاب» بشجاعة الصادقين الذين لا يخافون في الله لومةَ

لائمٍ، فبيَّنوا موقف الإسلام الصحيح منها، وأظهروا النصوص الشرعية في إدانة أهل الغلو والتطرف والإرهاب، وشرحوا ما جاءت به الشريعة السمحة من الأحكام الكفيلة بإحقاق الحق، وإقامة العدل، وحفظ الحقوق، وصيانة العهود والمواثيق، وتعظيم الدماء، وسدِّ طرق الغدر والخيانة، والبغي والجريمة، وتلك الجهود المباركة التي بذلها رجالات الإسلام؛ لم تكن لتوقف عجلة الإرهاب التي تحركها اليومَ منظمات عالمية وأيدي دول وتنظيمات، ولا أن تمنع من استغلاله لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، وإطلاق دعايات مغرضة للإساءة إلى الشريعة السمحة، والتحريض الظالم ضد المسلمين، خاصة ضد الأقليَّات والجاليات الإسلامية في بلاد الغرب.

إن ظاهرة الإرهاب - اليوم - مادَّة «دسمة» لكل عدوٍّ حاقد، ومترصد متحامل، خاصة مع تعدد المنابر الإعلامية، وسهولة الوصول إلى الجماهير العريضة من خلال ما يسمى بوسائل التواصل الاجتماعي، أما مادة التشويه والتقبيح، والإثارة والتحريض؛ فجاهزة مبذولة، ينشرها الإرهابيون أنفسُهم في شتى مواقع الشبكة العالمية، بعد أن أتقنوا تصوير مشاهد الإذلال والتعذيب والقتل وقطع الرؤوس وتخريب العمران، وكل ذلك تحت راية التوحيد، ونداءات التكبير، وبِاسم «تطبيق الشريعة» - زُورًا وبهتانًا -!

وكما أنَّ «الإرهاب» مستمرٌّ؛ فلا بدَّ من أن تستمر الجهود المخلصة الجادَّة في معالجته علميًّا وفكريًّا كما يتمُّ مواجهته أمنيًّا وميدانيًّا، وأيضًا: فإن حملات التحريض والتشويه، واستغلال الإرهاب لتجريم دين الإسلام والتنفير عنه مستمرةٌ؛ فلا بدَّ إذن من أن يرتفع صوت الحقِّ بالبيان والتوضيح لحقائق الإسلام وأحكامه، ومعالم عدله ورحمته وسماحته، ورفعة أخلاقه، وروعة تاريخه، ومحاسن مقاصده وآثاره.

وهذا بحث موجز عن الآثار السيئة لظاهرة العنف والإرهاب على الدعوة الإسلامية، وما أدَّت إليه من تشويه صورة الإسلام والمسلمين، خاصة في الدول الغربية، ونتج عن ذلك: النظرُ بعين الريبة والحذر لكلِّ مسلمٍ، وتقوية التيارات العنصرية المتطرفة، وزيادة مشاعر الخوف من الإسلام وتوسُّع دعوته وإقبال الناس عليه، فبدأَتْ بوادر التضييق على المسلمين، وكل هذا مما بدأ المسلمون يشعرون به ويلمسون آثاره في حياتهم اليومية.

مفهوم «تشويه صورة الإسلام والمسلمين»:

مدار هذا البحث حول قضية «تشويه صورة الإسلام والمسلمين» بسبب الأعمال الإرهابية الإجرامية التي يتورط في ارتكابها بعض الفِرق الإسلامية، أو تلك التي تُنسب إلى المسلمين زورًا وبهتانًا، فـ«التشويه» من مآلات تلك الأعمال الإرهابية، سواء من جهة النتيجة اللازمة، والعلاقة الحتمية بين المقدِّمات والنتائج والأسباب والمسبَّبات، أو من جهة كون تلك الأعمال تُستغلُّ وتوظَّف إعلاميًّا لتحقيق ذلك «التشويه» المقصود الذي يُقدَّم للجمهور الغربيِّ في سياق تضخيم إعلامي، ودعاية مضادة، لإثارة المشاعر والأحاسيس، وتنمية نوازع الكراهية والعداء، بما يزيد من ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، ويقوي نظرية «صراع الحضارات».

ونقصد بـ: «تشويه الصورة»: ما يرادف في الإنكليزية كلمات: misrepresentation، vilification، denigrate، التي تستخدم للتعبير عن التحريف وتزييف الحقائق وتشويه السمعة، استنادًا إلى أخبار صادقة أو كاذبة، وفي الغالب يكون عن اتهاماتٍ لا أساس لها من الصحة، أو يكون تشويهًا يُقصد به تحقير القدْر والمنزلة، والاستهانة بالمنجزات والأعمال، أو إعاقة تقدُّم

شخص أو جهة، وتعثُّر الخطط والنشاطات الخاصة به[١].

موقف الإسلام من ممارسة «التشويه»:

«تشويه الصورة» لون من ألوان الممارسة غير الأخلاقية، حيث ينطوي على الظلم والبغي، وجحد المحاسن وتضخيم المساوئ، ونسبة عمل الفرد إلى الجماعة، وخطأ الجماعة إلى العقيدة والمنهج، وتعميم الواقعة الخاصة، وإطلاق الحكم الكليِّ بِناءً على دليل جزئيٍّ، وغير ذلك من المواقف والأحكام الجائرة.

وموقف الإسلام - عقيدة وشريعة - من هذا السلوك واضحٌ جليٌّ، وهو التحريم القطعي، لأنه من الكذب والظلم والبغي الذي لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه، فهو مُنافٍ لمبادئ الدين الكلية ومقاصده العامة التي نجد معالمها في مثل قول الله ﷻ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالعدل حتَّى في حقِّ أعدائهم الحربيِّين، فـ: «العدل» هو ضابط العلاقة حتَّى في أسوأ حالات العلاقة بين الطرفين، إذ تستحكم العداوة، وتعلو أصوات الحرب؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) راجع معنى هذه الكلمات واستخداماتها في المعجم الإلكتروني:
http://www.vocabulary.com [07/12/2014].

والمنهج الإسلامي في الردِّ على المخالفين من أهل المِلل وبيان فساد عقائدهم والتحذير من مسالكهم؛ قائم على قاعدتي: «الصِّدق في الخَبَر»، و«العدل في الحكم»، فكلُّ ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة من الأَخبار عن عقائد أهل الكتاب والمشركين وعباداتهم وأعمالهم المخالفة للحقِّ والهدى؛ فصدْق، مطابق لما كان أو هو كائن في نفس الأمر، من غير كذب أو تحريف، ولا مبالغة ولا تهويل، مثل الإخبار عن عقائد النصارى في المسيح عليه الصلاة والسلام، فقد قالوا: «إن الله هو المسيح ابن مريم»، و: «إنَّ الله ثالث ثلاثة»، و: «المسيحُ ابنُ الله»[١]، وكلُّ هذه الصيغ مطابقة لعقائد النصارى في نفس الأمر، وإن حاولوا التملُّص منها بالتأويل المتكلَّف وحمْل دلالة العبارات الصريحة على إرادة المجاز[٢]، ومثل الإخبار عن ظاهرة قتل الأولاد عمومًا ووأْد البنات منهم على وجه الخصوص[٣]، ومثل تحريم المشركين لبعض الأنعام[٤]، والملاحظ في هذه الأمثلة - وغيرها كثير - أن الإخبار في القرآن الكريم بتلك الحقائق لا يقصد بها مجرد التشنيع والتوبيخ؛ بل المقصد الأصلي فيها التصحيح والتقويم، وإبطال العقائد الفاسدة، ومنع الممارسات الخاطئة، لهذا تأتي دائمًا مقترنةً بالأحكام العادلة التي تعيد الأمورَ إلى نصابها، وتُبيِّن مرادَ

(١) راجع حكاية هذه الأقوال عن النصارى في سورة المائدة، الآيات: (١٧)، و(٧٢)، و(٧٣)- وسورة التوبة، الآية: (٣٠).

(٢) راجع مناقشة اعتراضات النصارى في: «مناظرة في الرد على النصارى» للفخر الرازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٦م.

(٣) سورة الأنعام: (١٥١)، و(١٤٠) و(١٥١)- والإسراء (٣١)- والنحل: (٥٨-٥٩)- والممتحنة (١٢)- والتكوير: (٨-٩).

(٤) سورة المائدة: (١٠٣)- والأنعام: (١٤٣-١٤٨).

الله تعالى من العباد؛ ليكونوا على هُدى ورشاد: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

تشويه صورة الإسلام والمسلمين منهجٌ قديمٌ لأعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام:

لقد جرت سنة الله تعالى على تأييد رسله عليهم الصلاة والسلام بالآيات الباهرة، والحجج القاطعة على صدق نبوَّتهم، فتزول بذلك كل شبهة، وتنقطع كل معارضة، فيلجأ المعاندون والمستكبرون إلى سلوك طريق البغي والظلم، والكذب والافتراء، ويسعون جاهدين في صدِّ الناس عن دعوة الحقِّ بنشر الإشاعات الكاذبة، وتشويه السمعة، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]، وهذه الآية الكريمة تسلية لخاتم النبيين محمد ﷺ، وتثبيتٌ لقلبه، فقد لجأ مشركو مكَّة إلى نفس أسلوب كفار الأمم السابقة؛ فوصفوا الرسولَ ﷺ بأوصاف لا يُقصد بها إلا التشويه والتنفير، فقالوا عنه: «كذاب، شاعر، ساحر، مجنون، وكاهن» وغيرها من الأوصاف التي سجلها القرآن الكريم وذكرتها كتب السيرة، ولما كانت وسائل النشر والإشاعة محدودة في ذلك الزمان؛ فقد لجأوا إلى التشويه الميداني المباشر، وكان ﷺ يستثمر موسمَ الحج وسوقَ عكاظ بعرض دعوته على الناس، فكان أبو لهبٍ يمشي خلفه يقول: أيها الناس! إن هذا قد غوى فلا يغوينَّكم عن آلهة آبائكم، والرسول ﷺ يَفِرُّ منه، وهو على أَثَره[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» ٣/ ٤٩٢ (١٦٠٢٠)، وقال محققو «مسند الإمام أحمد» ٢٥/ ٤٠١: إسناده صحيح.

ونجد في قصة الوليد بن المغيرة تأكيدًا على أن سلوك أبي لهبٍ - وغيره - كان جزءًا من خطة مدبَّرة، وضعها رؤساء قريش لمواجهة التوسُّع الملحوظ للدعوة، فقد حدَّث عبدُ الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ الوليد بن المغيرة اجتمع ونفرٌ من قريش وكان ذا سِنٍّ فيهم، وقد حضر الموسمُ، فقال: إنَّ وفود العرب ستَقدُم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيُكذب بعضُكم بعضًا، ويَرُد قول بعضكم بعضًا، فقالوا: فأنتَ يا أبا عبد شمس فقل، وأقِمْ لنا رأيًا نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا أسمعُ. فقالوا: نقول: كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيتُ الكُهانَ فما هو بزمزمة الكهان، فقالوا: نقول: مجنون. فقال: ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تَخالجُه ولا وسْوَستُه، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشِّعر: برَجَزه، وهَزجه، وقَريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: فما هو بساحر، قد رأينا السُّحار وسِحرهم، فما هو بنَفْثه ولا عُقَده. فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟! قال: واللهِ إنَّ لقوله حلاوة، وإن أصله لمُغدق، وإن فرعه لجَنيٌّ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القولَ لأن تقولوا: ساحر، فتقولوا: هو ساحر يفرِّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وبين زوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون للناس حين قدِموا المَوسمَ، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلَّا حذَّروه إياه، وذكروا لهم من أمره.

فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا

﴿قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١-٢٦][(١)].

ولا شكَّ أن دعايات التشويه أثَّرت في أناسٍ فصدَّتهم عن الهُدى، وشوَّشت على الآخرين فكادوا يَهلكون لولا لُطْفُ الله تعالى بهم، كما في قصة ضِماد الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد اقتنع بدعاوَى المشركين أن محمدًا ﷺ مجنون، فقال: لو أني رأيتُ هذا الرجلَ لعل اللهَ يشفيه على يديَّ! فلمَّا جاء إليه وسمع كلامه ﷺ؛ شرح اللهُ صدره فأسلَمَ![(٢)].

وكان لحملات التشويه والتنفير ضحاياها، كما أنها مثَّلت عبئًا إضافيًّا على الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسبَّبت له حزنًا وأسًى لشدَّة حرصه على هداية الخلق وإيصال الخير إليهم، لهذا كان الوحي ينزل بتسليته ﷺ بمثل قول الله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦]. ومهما بلغت تلك المحاولات من قوة ونفوذ؛ فقد كتب الله لها الفشل والخسران، مصداقًا لقوله الكريم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٥٠٦، والبيهقي في «دلائل النبوة» ٢/ ١٩٨، وصححه مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول» ١٦٧-١٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٨٦٨).

الكنيسة الغربية ومنهج «تشويه السمعة»:

كانت الكنيسة الغربية تتابع أخبار ظهور الإسلام وانتشاره السريع في الشرق وشمال أفريقيا ثم الأندلس، وتدرك أن ذلك توسع مذهل لدعوة جديدة تمتلك عوامل الحجة والاقناع والتأثير؛ لذا بادرت إلى حماية جماهيرها وتحصينهم من خلال تشويه صورة النبي ﷺ والدين الذي جاء به، والأمة التي حملت الأمانة ونهضت بالرسالة، فحاك كثير من رجال الكنيسة في الغرب الأكاذيب والقصص المشوهة والخيالية لصد الناس عن مجرد التفكير في حقيقة هذا الدين، فقالوا إن الإسلام من اختراع محمد ﷺ، وإنه استلهم هذا الدين من الشيطان، وكان هذا القول نقطة البداية التي نُسجت حولها الخيوط، وبُنيت عليه الكثير من الأساطير والافتراءات على الإسلام، ونشروها بين الناس لإخافتهم من الإسلام والحيلولة بينهم وبين قبوله، ومن تلك الأساطير: تحريفهم سَنة وفاة محمد ﷺ من رقم (٦٣٢م) إلى (٦٦٦م)؛ حتى ينطبق هذا الرقم على عدد الوحش المذكور في «سِفر رؤيا يوحنا» اللاهوتي، الإصحاح الثالث عشر، والذي يقول في أوله: «ثم وقفتُ على رمل البحر، فرأيتُ وحشًا طالعًا من البحر، له سبعة رؤوس، وعشرة قرون، وعلى قرونه عشرة تيجان، وعلى رؤوسه اسم تجديف»، وفي نهايته يقول: «وأن لا يقدر أحدٌ أن يشتري أو يبيع إلا مَن له السمة أو اسم الوحش أو عدد اسمه، هنا الحكمة. مَن له فَهْم فليحسب عدد الوحش، فإنه عدد إنسان، وعدد ست مئة وستة وستون».

لقد حرَّفوا اسم هذا الوحش، وأطلقوا عليه: ماهاوند Mahound حتى يصبح محمدٌ ﷺ - في نظرهم - تجسيدًا للشيطان؛ إن اسم: ماهاوند، أو: ماهون Mahun بالفرنسية، أو: ماهمت Mahmet بالإنجليزية، أو: ماتشميت Machmet بالألمانية؛ جميعها مرادفة لكلمة: عِفريت، وشيطان، وصنم،

ابتكرها كُتَّاب نصارى، صيغت حولها قصص أسطورية ورومانسية في أوروبا إبان القرن الثاني عشر، وفي هذه الكتابات لم يُظهروا فيها محمدًا نبيًّا، وإنما صوَّروه على صورة صنم ووثن عبَدَه العربُ[١]، وكان المسلمون يلقَّبون بالوثنيين في كتابات أوربيي العصور الوسطى أو بالأعداء الزنادقة[٢]، لهذا اصطلحوا على ذِكر المسلم باسم: «المحمَّدي»، وللجمع: «المحمديون» و«المحمدية»، ويُرجع «معجم أكسفورد الإنكليزي» أقدمَ اقتباس لصيغة: Mohammedan؛ إلى سنة (١٦٦٣م)، والصيغة الأقدم منها هي: Mahometan ويعود تاريخها إلى سنة (١٥٢٩م)، واستمر استخدام هذه الصيغة حتى بعد سنة (١٩٦٠م) ببضع سنوات[٣]، وهذا الاستعمال لا يختصُّ باللغة الإنكليزية، بل كان مستعملًا في سائر اللغات الأوروبية، وتقول «الموسوعة السويدية»: إن استعمال هذا اللفظ في الوقت الحاضر يُعدُّ تعديًا جارحًا وغير لائق[٤].

---

(١) الإسلام والغرب مواجهة أم حوار؟ لمحمد علي الفرا، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠٠٢، ص: ٥٠- وموقف الكنيسة الغربية من الإسلام ونبوة محمد ﷺ، لرابح إبراهيم السباتين، عمان، المؤلف: ٢٠١٠م، ص: ٤٣ وما بعدها.

(٢) راجع مادة: نظرة النصارى في القرون الوسطى إلى محمد ﷺ، في «ويكيبيديا» الإنجليزية: http://en.wikipedia.org/wiki/Medieval_Christian_views_on_Muhammad

(٣) راجع مادة Mohammedan في «ويكيبيديا» الإنجليزية:
http://en.wikipedia.org/wiki/Mohammedan

(4) Jan Hjärpe «muhammedan»، http://www.ne.se

الإعلام الحديث وموروث الصورة المشوَّهة:

ورث الإعلام الحديث تلك الصورة النمطية المشوَّهة عن الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية، وكان الحديث غالبًا عن «العرب»، في إشارة إلى المسلمين، رغم أن الأكثرية من المسلمين هم من غير العرب.

تُظهر دراسة في عام (١٩٨٠م)؛ إلى أن صورة العربي في التلفزيون الغربي تتمثل في الإرهاب والعنف والقسوة، والنفط والصحراء، والمقاطعة والجشع، والتخبط والتفرق، وقد أصبحت تلك الصورة مادةً للكوميديا في هوليوود، وتقدِّم الدراسة أمثلةً مفصلة على ذلك، كما تُقدم أمثلةً على تغطية معادية للعرب وللمسلمين من قِبل برامج الأخبار التي تحَظى بالثقة والشهرة، مثل برنامج (٦٠ دقيقة)، و(٢٠/ ٢٠)، بالإضافة إلى نشرات الأخبار المعتادة التي دأبت على ربط الإرهاب بالعرب والمسلمين. وتؤكد دراسة أخرى في عام (١٩٨٤م)؛ أن الصورة النمطية عن العرب لا تزال منتشرة في كل مكان، ويتجدد ظهورُها في برامج جديدة، ولا شكَّ أن تلك الصورة كان لها تأثيرها في تكوين الرأي العام، فقد أشار استطلاعٌ (١٩٨١م) لتصورات ومواقف الأمريكيين تجاه العرب؛ أن لديهم القليل من المعرفة بالتاريخ والثقافة العربية، وأظهر الاستطلاع أن الأمريكيين يعتقدون عادة أن العرب يعادون الولايات المتحدة ويعادون المسيحية[1]، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام (١٩٩١م)، وبروز الولايات المتحدة الأميركية قوةً أولى وعظمى وحيدة في العالم؛ برز في الغرب

(1) Rasha A. Abdulla «Islam، Jihad، and Terrorism in Post-9/11 Arabic Discussion Boards» in «Journal of Computer-Mediated Communication» Volume 12، Issue 3، 2007، P. 1064.

على المستوى السياسي والإعلامي؛ الحديث عن المنافس أو العدو الجديد للمنظومة الغربية، وأطلق الباحث السياسي الأميركي صمويل هنتينغتون نظرية «صراع الحضارات»، وسرعان ما أصبحت مرجعًا يُستغلُّ في الغرب حتى اليوم للتحريض ضد المسلمين(١)، والنظرة الدقيقة لتصريحات الساسة وكبار المسؤولين الغربيين؛ تُظهر أن الخطر القادم هو «التطرف الديني» أو «التعصب الديني» بإطلاق، أو «التطرف الإسلامي» أو «الجماعات الإسلامية المسلحة»(٢)، ولا يتمُّ التعميم عندهم بالعداء مع «الإسلام» نفسه عقيدة ودينًا، ومع ذلك؛ فإن مثل تلك التصريحات يتمُّ تعميمُها، وتأتي بترسيخ مشاعر الخوف من «الإسلام» و«المسلمين» عمومًا، وهذا ما سنلاحظه عند حديثنا عن الإسلاموفوبيا.

---

(١) نيكولاس ريشت: «صراع الحضارات: نظرية خاطئة تقوي شوكة أعداء الإسلام» مقال مترجم، منشور في «قنطرة» الألمانية، ١١/ ١٠/ ٢٠١٣م:
http://en.qantara.de/node/17072

(٢) لاحظ على سبيل المثال ما نشرته صحيفة «واشنطن بوست» في ٩/ ٢/ ١٩٩٥م، من أن حلف الناتو يبحث عن تحالفات جديدة لمواجهة «المتطرفين الإسلاميين»:
http://www.sfgate.com/news/article/NATO-Seeking-New-Alliances-in-Mideast-Africa-3044861.php
ويؤكِّد التقرير الرسمي للحكومة الأميركية الذي أصدرته لجنة ١١ من أيلول؛ على أن الحرب على الإرهاب إنما هي حرب على التطرف الإسلامي المتمثل في تنظيم القاعدة، وليس حربًا على الإسلام، ويقول في الصفحة ٣٦٣: «الإسلام ليس هو العدو، الإسلام ليس مرادفًا للإرهاب، ولا يقوم بتعليم الإرهاب». راجع:
http://www.9-11commission.gov/report/911Report.pdf

حملات التشويه بعد ١١ من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م:

تُعدُّ حادثة الاعتداءات الإرهابية التي وقعت في الولايات المتحدة في الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م)؛ المنعطف التاريخي الأهم للإعلام الغربي فيما يتعلق بالحديث عن الإسلام والمسلمين، فقد تصدَّر واجهةَ اهتمام وسائل الإعلام، وبدأ التطرق إلى مسائل تفصيلية تتعلق بالعقيدة والشريعة والمفاهيم والتاريخ والحضارة، ورغم وجود بعض الأقلام والأصوات المنصفة؛ فقد ظلَّ الاتجاه العام متحاملًا، حيث يتمَّ ربط الحديث عن الإسلام والمسلمين غالبًا بالحديث عن الإرهاب وجذوره ومخاطره، وجاءت تفجيرات مدريد (٢٠٠٤م)، وتفجيرات لندن (٢٠٠٥م)، وغيرها؛ لتقوية هذا الاتجاه وتحريضه والإبقاء على فاعليته وتأثيره.

وأفادت إحصاءات الجريمة من قِبل مكتب التحقيقات الفدرالي في الولايات المتحدة؛ أن جرائم الكراهية ضد العرب والمسلمين زادت بنسبة (١٧) مرَّة بعد أيلول ٢٠٠١؛ إذ تلقَّى المكتب (٢٨) تقريرًا فقط خلال عام (٢٠٠٠)، وارتفع العدد في عام (٢٠٠١) إلى (٤٨١) حادثة اعتداء[١].

ونشرت صحيفة الديلي تِلِغراف (١٠/ ٩/ ٢٠٠٦) تقريرًا بعنوان: «وسائل الإعلام تُسهم في زيادة الخوف من الإسلام»، نقلت فيه عن محمد عبد الباري - الأمين العام للمجلس الإسلامي البريطاني- قولَه: إن وسائل الإعلام أسهمت في تشويه صورة المسلمين من خلال التركيز على عدد قليل من المتطرفين، وتجاهل الأغلبية الملتزمة بالقانون[٢].

---

(1) http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/americas/3154170.stm

(2) http://www.telegraph.co.uk/news/1528485/Media-contributing-to-rise-of-Islamophobia.html

وأظهرت دراسة أجرتها نقابة الصحفيين عام (٢٠٠٧)، عن محتوى التغطية الإخبارية في الصحف البريطانية خلال أسبوع واحد فقط من عام (٢٠٠٧)؛ أنَّ ٩١٪ من المقالات عن المسلمين كانت سلبية[١].

تقول الباحثة البريطانية لورا براون: «عدد الهجمات المعادية للمسلمين تزيد كلما ذُكر الإسلام في وسائل الإعلام، خاصة فيما يتعلق بالأحداث الإرهابية، فعلى سبيل المثال، زادت اعتداءات العام الماضي أيام الذكرى العاشرة لهجمات ٩/ ١١، وتم نشر كثير من المقالات التي تُظهر تطبيق أحكام الشريعة في بعض البلدان ذات الأغلبية المسلمة منافيًا لحقوق الإنسان الأساس، وهذا يؤثر - عندما يقترن بمقالات عن التطرف الإسلامي والأنشطة الإرهابية - على فهْم الإسلام، وهذا الإفراط في إبراز الحوادث النادرة عن تطبيق الشريعة؛ يؤثر في الجمهور المتلقي الذي لا يستطيع التخلص من تأثير وسائل الإعلام؛ فتصبح لديه نظرة غير واقعية عن الإسلام والمسلمين، ونتيجةً لذلك؛ فإن الكثيرين يعتقدون ويَشعرون بالقلق من أن جميع المسلمين يريدون تطبيقَ تفسيرٍ منحرفٍ للشريعة باعتبارها السلطة الحاكمة العليا في جميع أنحاء العالم، فالشريعة - خلافًا لما يعتقده الكثيرون - ليست نظامًا صارمًا وعنيفًا، وقد كشفت الأبحاث أنه على الرغم من أن جماعات مثل: رابطة الدفاع الإنجليزية، والحزب القومي البريطاني؛ كانت مسؤولةً عن العديد من الهجمات، فإن غالبية جرائم الكراهية ضد المسلمين قد ارتُكبَتْ من قِبل أفراد لا علاقة لهم بجماعات اليمين المتطرف، ولكنَّ اعتداءاتهم كانت بدافعٍ من التصوُّر السلبي المستمر عن المسلمين في وسائل الإعلام، ويُبرز ذلكً أن وسائل الإعلام

(1) http://www.theguardian.com/media/2007/nov/14/pressandpublishing.religion

- وهي أداة تعليمية بالنسبة للكثيرين- يمكن أن تؤثر بشكل كبير على قناعات ومواقف وأفعال الناس، ومع ذلك؛ لو كان الجميع يقرؤون المقالات قراءة ناقدة لعلموا أن القصص التي تصلح للطباعة والنشر هي التي تكون أكثر إثارة ومبيعًا، فما فيها من سوء وتشويه عن الإسلام لا أهمية له، فالزي التقليدي الإسلامي- خاصة البرقع- يعتبر أيضًا مدعاة للريبة عند الكثيرين، وفي عام (٢٠٠٧)؛ قالت صحيفة «الديلي إكسبريس»: «ارتداء البرقع يشكل تهديدًا لطريقتنا في الحياة»، وتم وصف البرقع باعتباره زيًّا يمثل تهديدًا حقيقيًّا، وهو «ما يماثل قناع الرأس الذي يلبسه قُطاع الطرق أو اللصوص المسلحون»، فالمرأة المسلمة ترتدي النقابَ عمدًا لتهديد طريقة الحياة البريطانية، مثل هذه المنشورات تزيد من الصورة النمطية السلبية بين الغربيين، إنها نوعٌ من التغطية الإخبارية، وزيادة كميَّتها (بقدر ٦٥٨٪) في أعقاب الهجمات الإرهابية (١١ من أيلول)؛ يُشير إلى المسلمين باعتبارهم كلًّا واحدًا، ويَعُدُّهم «العدو الأول للمجتمع»، وأنهم يتحملون مسؤولية جماعية عن الاعتداءات الإرهابية»[١].

ويفيد تقرير بعنوان: «التصور الغربي للإسلام والمسلمين: دراسة في الرأي العام ودور الإعلام في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية»؛ تمَّ إعدادُه بتكليفٍ من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت[٢]، وعُرض في مؤتمر

(1) http://www.onreligion.co.uk/islamophobia-the-medias-creation/

(2) Chris Yalonis; Gabrielle Mogannam; Katy Milton; Communique Partners.; «Western perception of Islam and Muslims: a study of public opinion and the role of the media in the United States and western Europe»، Kuwait، Wiza rat al-Awqa f wa-al-Shu n al-Isla mi yah. San Rafael، Calif.: Communique Partners، 2005.

NewsXchange في أمستردام (٢٠٠٥)، واستند إلى استطلاعات ومقابلات مع خبراء وسائل الإعلام؛ أنَّ الإرهاب ومعاداة أميركا، وقضية احتلال العراق، تهيمن على القنوات التلفزيونية في تغطيتها الإخبارية عن الشرق الأوسط. ولا يزال يُنشر في المطبوعات تحيز مؤذٍ ضد المسلمين، فمادة «الإسلامي» أو «المسلم» مرتبطة بالتطرف والتشدد والجهاد، كما لو كان الارتباط بينهما أمرًا طبيعيًّا غير قابل للفصل: (متطرف مسلم، الإرهاب الإسلامي، الحرب الإسلامية، قنبلة إسلامية)، ويضيف التقرير: في كثير من الأحوال تتحدث الصحافة وتكتب عن المسلمين بطريقة لا يمكن أن تكون مقبولة فيما لو كانت عن اليهود، أو السود، أو النصارى الأصوليين، وإن تصوير الإسلام آخِذ في التحسن في «بعض وكالات الأنباء المرموقة»، أما نشرات الأخبار في التلفزيون فلا يزال يهيمن عليها تغطيةُ الهجمات الإرهابية وصور الرهائن «لصدمة وجذب المشاهدين»، ويرى التقرير أنه يجب على المؤسسات الإعلامية الغربية أن تُظهر المسلمين بوضعهم الطبيعي في الحياة اليومية، من حيث كونهم مِهنيِّين، ومعلمين، وأصحاب أُسَر، وقادةً في المجتمع ومشاركين فيه، وتفيد هذه الدراسة أن الأخبار والأفلام الوثائقية في القنوات التلفزيونية؛ تكون أقوى تأثيرًا على آراء الناس حول الإسلام، تليها تغطية الصحف المطبوعة، وقال كريس ياليونيس - أحد المشاركين في إعداد التقرير - أثناء عرضه في المؤتمر: «لقد اختُطفت صورة الإسلام من قِبل المتطرفين، وحان الوقت لإعادتها» [1].

(1) http://www.theguardian.com/media/2005/nov/14/pressandpublishing.raceintheuk

وبين يديَّ تقرير في غاية الأهمية، أصدرته جامعة لانكَسْتَر في بريطانيا عام (٢٠١١)[(١)]، حيث قام باحثون بجمع وتحليل أكثر من مئتي ألف مقالة منشورة في الصحف البريطانية خلال المدة من (١٩٩٨) إلى (٢٠٠٩)، وهذا يعادل نحو (١٤٣) مليون كلمة صحفية، تم تحليلها من قِبل الفريق باستخدام برامج الكمبيوتر للبحث فيها، وتحديد أنماط اللغة، لإعطاء فكرة عن الطرق الأكثر استخداماً في الحديث عن المسلمين.

لقد تناولت هذه الدراسة المهمة جوانبَ مختلفةً عن الإسلام والمسلمين في الصحافة البريطانية، ومنها ما يتعلق بموضوع بحثنا هذا، حيث تفيد الدراسة أن الأكثر شيوعًا هو التصوير السلبي للمسلمين صراحةً، والأكثر دهاءً هو التصوير السلبي ضِمنيًّا، حيث يتمُّ الحديث عن المسلمين بطريقة التعميم والتعبير عنهم بالعالم الإسلامي -كتلة واحدة - وذلك في أكثر الأحيان في سياق الارتباط مع الصراع والإرهاب والتطرف، وعلى سبيل المثال؛ عندما ذكرت

---

(1) Paul Baker; Costas Gabrielatos; Tony McEnery «Discourse analysis and media attitudes: the representation of Islam in the British press»، Cambridge; New York: Cambridge University Press، 2013.

وهذا التقرير سبقه تقرير مشابه له صدر عن جامعة كارديف:

Kerry Moore; Justin Lewis; Paul Mason «Images of Islam in the UK: the representation of British Muslims in the national print news media 2000-2008»، Halle (Saale) Universitats- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt Cardiff، Cardiff School of Journalism، Media and Cultural Studies; 2008

صحيفة بريطانية كلمة «المسلم» و«المسلمين»؛ ذكرت خلال ذلك كلمة تعبر عن «العقيدة المتطرفة»، مثل: التطرف، أو التعصب، ويتمُّ التطرق إلى «المسلمين المتطرفين» بمرات كثيرة جدًّا أكثر من التطرق إلى «المسلمين المعتدلين»، ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن الإشادة بمن يسمون بـ: «المسلمين المعتدلين» تتم لعدم التزامهم الديني بشكل كامل، وتم العثور في كل الصحف على إشارات صريحة إلى التطرف أيضًا بجانب كلمة «إسلامي – Islamic» مرةً واحدة كلَّ ست مرات ذُكرت فيها هذه الكلمة، بل من المرجح أن كلمة «إسلامي» يتعذر الآن استخدامها بطريقة محايدة دون أن تحمل إيحاءاتٍ سلبيةً ومرفوضة.

وأجرى الباحث السويدي جويل تيدغورد، دراسة تحليلية عن صورة المسلمين في الإعلام في محتوى الصحف السويدية خلال أسبوع بعد ١١ من أيلول ٢٠٠١، واقتصر في بحثه على ما نشرته ثلاث صحف يومية هي أكبر الصحف السويدية وأشهرها وهي: Dagens Nyheter، Svenska Aftonbladet،Dagbladet ، وتمثل ثلاثة اتجاهات فكرية وسياسية: (الليبرالية، والمحافظة، والاشتراكية الديمقراطية)، وقد اختار الباحث المقالات التي تمثل وجهة نظر الصحف وكُتَّابها، وليس الأخبار المنقولة من هنا وهناك، وبعد دراسة تحليليَّةٍ لمحتوى تلك المقالات خلُص الباحث إلى النتائج التالية[1]:

(1) Joel Tedgård: «Bilden av muslimer i media - en innehållsanalys av tidningsmedia veckan efter 11 september 2001» Malmö högskola، Lärarutbildningen، Individ och samhälle، 2011.

١ - تكوُّن الـ: «هُم» للتعبير عن «المسلمين» وإبراز مدى اختلافهم عن العالم الغربي، وركزت المقالات على كل شيء ابتداء من المظهر والملابس، وكيفية التفكير والتصرف مقارنةً بالغرب، ومن خلال التركيز على تلك المقارنة تِكوَّن الـ: «هُم»، باعتباره مباينًا لـ: «نحن» في العالم الغربي، وتم الحديث عن: «هُم» في أربعة محاور رئيسة: (الدول الإسلامية غير متطورة وغير ديمقراطية ومحكومة بالعواطف، والدين مهم جدًّا عند المسلمين، والعالم الإسلامي كيان واحد في انتمائه، وسمات المسلمين غامضة)، وأورد الباحث اقتباسات كثيرة بهذا الخصوص.

٢ - تكوُّن الـ: «نحن» للتعبير عن شعوب العالم الغربي، ويظهر تأثير هذا في صورة المسلمين في الإعلام؛ من ملاحظة أن التركيز على «نحن» يُقصد به التمايز عن «هُم»، ورغم أن السويد لم تُستهدف بهجمات سبتمبر؛ فقد أبرز الشعور بـ: «نحن» أن ما حصل في الولايات المتحدة هو استهداف للسويد أيضًا، لأن تلك الهجمات استهدفت: «رمزية حياتنا»!

٣- كثير من تلك المقالات أبرزت نظرية «صراع الحضارات» لصمويل هنتغتون سنة (١٩٩٦م)، وتم الاقتباس منه والعزو إليه في عدد منها مع الثناء عليه، وتم الحديث عن «الحرب العالمية»، و«الصراع الثقافي بين العقلانية والحكومة الإلهية»، فقبول التفكير بطريقة «هم» و«نحن» يُفضي إلى «صراع الحضارات».

٤ - رغم أن أكثر المقالات تؤكد على أنه لا صلة بين الدين والإرهاب - حتى في دعوى منفذي هجمات ١١ من أيلول من أنهم مسلمون وفعلوا ذلك باسم الإسلام- إلا أن تلك المقالات لا تخلو من الإشارة إلى تلك الصلة بينهما، إما ضمنيًّا، وإما على سبيل توضيح سبب الإرهاب، فعِدة

مقالات تجعل «المسلم المتديِّن» مرادفًا لكون الشخص خطيرًا، ويؤكد ذلك بأن أكثر مؤيدي أسامة بن لادن هم من المتدينين، حتى إدانة كثير من أئمة المساجد في السويد للهجمات الإرهابية؛ يمكن أن تُحمل على محمل سيء؛ حيث يُنظر إليها أنها محاولة لتبرئة مسلمي السويد من الإرهاب، وأنها إقرار ضمني بوجود الصلة به، لهذا يتم التبرؤ منه.

وخَلُصَت النرويجية جوليا شونيمان في دراستها للتغطية الإخبارية لصحيفة نيويورك تايمز وواشنطن تايمز لمسألتي الحجاب والرسوم المسيئة؛ إلى أن «صحيفة نيويورك تايمز وصحيفة واشنطن تايمز؛ استخدمتا على حدٍّ سواء «إطارَ الإرهاب» جنبًا إلى جنبٍ مع تصوير المسلمين بأنهم «الآخر» المرتبط بالإرهاب، وكان «الإرهاب» موضوعًا لخمسة عشر من المقالات التي تم تحليلها، وأظهر البحث أن مصطلحات: «الأصولية»، «الإرهاب»، «الراديكالية»، «التطرف»، «التعصب»، «التشدد»، و«العنف» كثيرًا ما تَردُ في سياق ربط هذه المصطلحات السلبية مع الموضوع والناس والدين، وتقارير وسائل الاعلام بشأن الإرهاب والأصولية؛ عادة ما تصف معظم المسلمين بالمتطرفين والجهاديين، ويشمل هذا أنهم كانوا يصلون، أو يهتفون: «الله أكبر» أثناء المظاهرات، وهذا التركيز المكثف لما يتم ربطه بالتوجهات الإرهابية؛ سيؤدي إلى التأثير في كيفية فهم الجمهور لتلك الأخبار، وبالتالي في كيفية ربط المسلمين بالإرهاب الذي يتم تناوله بهذه الطريقة بشكل يومي، وكذلك تناول قضية الرسوم المسيئة؛ يجعل القارئ يربط المسلمين بالإرهاب والعنف والأصولية، ومن المفترض أنك عندما تزيل سلوك صحيفة «يولاندس بوسطن» الدنماركية من القضية؛ فإن القراء الأميركيين سيظنون ظنَّ السَّوء في المسلمين ويُلقون عليها اللوم في النزاع، حيث يتم التركيز على عنصر واحد في هذا

الموضوع الإرهابي وهو الاعتداءات على المباني الدنماركية والأوروبية في الشرق الأوسط، ومعظم هذه المواد تُبرز المسلمين متعصبين، عنيفين، وبدائيين، وصور العنف والإرهاب عززت صورة الشرق الأوسط كمنطقة فوضوية وعدوانية، مما يجعل الجمهور الأمريكي يعتقد أن المسلمين ليسوا مثل «نحن»، والمواد ذات الصلة بالإرهاب التي تم تحليلها لهذه الأطروحة؛ تحتوي على ذِكر التهديدات بالقتل والتهديد بالقنابل والهجمات العنيفة، وتحليل هذه المواد يدعم رأْيَ «بيركوفيتش»، و«إيكو» اللذين اكتشفا أن هذه الصور من الإرهاب كانت تُعرض أحيانًا «بجوار الرسم المسيء للنبي ﷺ وهو يرتدي عمامة على شكل قنبلة»، أو مع ذِكر منتج الفيلم الهولندي الذي قُتل بعد صنع فيلم ينتقد المجتمعَ الإسلامي»، والخلاصة أن تأثير صحيفة نيويورك تايمز وصحيفة واشنطن تايمز بتركيزهما على موضوع الإرهاب؛ أن الإسلام والمسلمين بدا غيرَ معقول، ووحشيًّا، وغير دبلوماسي في ردوده على الرسوم.

وتدعم الباحثة النرويجية رأْيَ فريد هاليداي الذي ادعَى أن المسلمين والإسلام والإرهاب والأصولية تُذكر في وسائل الإعلام مرتبطة ببعضها على نحو خاطئ - مرارًا وتكرارًا - لجذب المزيد من المتابعين، يقول هاليداي: إنَّ الإرهاب أصبح «أداةً» يمكن تطبيقها على الإسلام واستخدامها ضدَّه مهما كانت الظروف[1].

(١) جوليا شونيمان: «الصور النمطية عن المسلمين»، رسالة ماجستير من جامعة أوسلو، النرويج: ٢٠١٣م.

Schønemann، Julie «The Stereotyping of Muslims: An Analysis of The New York Times' and The Washington Times' Coverage of Veiling and the Muhammad Cartoon Controversy» University Of Oslo, 2013.

نكتفي بهذا القدر من النقول التي اخترناها من الدراسات والبحوث المستندة إلى إحصائيات وتقارير خبراء واستطلاعات الآراء، وهي كثيرة جدًّا، تدل بمجموعها - بما لا يدع مجالًا للشكِّ - على أن الإرهاب الذي يمارَس باسم الإسلام؛ هو الغذاء الأساس لوسائل الإعلام الغربية في حملاتها المغرضة والمتحاملة ضدَّ الإسلام والمسلمين.

ظاهرة الإسلاموفوبيا:

لا يتمُّ الكلام عن تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي دون التطرُّق إلى ظاهرة «الإسلاموفوبيا»؛ فقد اتفقت كلمة الباحثين على أن «الإعلام» من أهم أسباب هذه الظاهرة، ومن أقوى العوامل المؤثرة فيها.

ومصطلح Islamophobia مركَّب من كلمتي «إسلام» و«فوبيا»، وأصل هذه الكلمة من اللغة اليونانية: phobos، وعُرِّب في عصرنا بكلمة: «الرُّهاب»[1]، ومعناها: الخوف، أو الخوف الشديد. وجرى استعمالها في الخوف الذي لا مُسوِّغ له حسب الأسباب الواقعية، فهو خوف لا يستطيع صاحبُه التحكمَ فيه بالقناعة المنطقية أو العقلية، فيغلب على إرادته، وتنتج عنه آثار سلبية على حياته وسلوكه، فأكثر الناس يخافون من الحيَّات والثعابين؛ لكن مَن يعاني من «فوبيا الحيَّات» يتحكم فيه ذلك الخوف إلى درجة أنه يمتنع عن الذهاب إلى الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها حيَّات، أو يشاهد صور الحيات في التلفاز أو الصحف، لأن كلَّ ذلك يسبب له إزعاجًا شديدًا، فالـ«فوبيا» بهذا الاعتبار ظاهرة مَرضية، ولها توصيفاتها في العلاج السريري، وأمثلتها كثيرة،

(١) «المعجم الوسيط»، أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ٣٧٦، وفيه إشارة إلى اعتماد هذه الكلمة من قرارات المجمع.

منها: الخوف من الظلام، ومن الأماكن المغلقة، والمرتفعات، وغير ذلك[١].

إن معرفة المعنى الدقيق لكلمة «فوبيا» ينبهنا إلى أن إضافتها إلى الإسلام إضافة مَجازية لا حقيقية، حيث يَندر أن تجد من يعاني من خوفٍ مرضيٍّ تجاه الإسلام، لكن المراد: «الخوف من الإسلام بِناء على تصورات غير حقيقة» وإن لم يبلغ ذلك الخوف درجة الـ: «فوبيا»[٢]، لهذا صار المصطلح نفسه موضع جدل وخلاف بين الباحثين، وحسب «معجم أوكسفورد الإنكليزي» تعني الكلمة: «النفور الشديد أو الخوف من الإسلام؛ كقوة سياسية، أو بسبب العداوة، أو التعصب ضدَّ المسلمين»، وهي اصطلاح حديث، حيث يرجع أقدم توثيق لاستخدامه في الإنكليزية إلى سنة (١٩٢٣م)، وجرى استخدامه على وجهٍ نادر، وفي سنة (١٩٩٧م) بدأ استخدامه في إطار أكاديمي ضيِّق، ولم ينتشر استعماله ويشتهر على نطاق عالميٍّ واسع إلا بعد حادثة ١١ من أيلول (٢٠٠١م).

---

(١) راجع مادَّة «فوبيا» في «الموسوعة البريطانية»:

http://www.britannica.com/EBchecked/topic/457032/phobia

وفي «الموسوعة السويدية»:

http://www.ne.se/uppslagsverk/encyklopedi/lång/fobi

(٢) من المفيد أن أحيل هنا إلى مقال: «خوف غربي من تهديد إسلامي وهمي غير موجود على أرض الواقع»، للصحفية والكاتبة الألمانية خَولة مريم هوبش، منشور في موقع «قنطرة» الألمانية، ١٩/ ١٢/ ٢٠١٤م، فيه تفسير اجتماعي مفيد لظاهرة الخوف من تهديد غير موجود في الواقع:

http://en.qantara.de/content/the-perception-of-islam-as-the-enemy-when-fear-creeps-in

إن لظاهرة «الإسلاموفوبيا» في الغرب أسبابها ودوافعها الكثيرة والمتنوعة، منها: الموروث التاريخي والثقافي للغربيين عن الإسلام، والعداء لدين الإسلام، والعنصرية ضد الأجانب عمومًا والمسلمين خصوصًا، والخوف من تنامي أعداد المهاجرين المسلمين في عموم أوروبا، ونشاطهم في بناء المساجد، وإمكانيات تزايد نفوذهم في التأثير في المجتمعات الغربية، والخوف من الأسلمة، وغير ذلك من الأسباب والدوافع التي يعمل «الإعلام الغربي» على تغذيتها وتقويتها، لهذا فلن نكون مبالغين إذا وصفنا «الإعلام» بأنه العامل الأساس لظاهرة الإسلاموفوبيا، فوفْقًا لما ذكرته إليزابيث بول في «موسوعة دراسات الأعراق والإثنية»؛ انتُقِدَت وسائلُ الإعلام لارتكابها الإسلاموفوبيا، وذكرتْ أن دراسة تحليلية لِعيِّنة من المقالات في الصحافة البريطانية خلال المدَّة من (١٩٩٤م) إلى (٢٠٠٤)؛ خلصت إلى أن وجهات النظر الإسلامية مثِّلت تمثيلًا ناقصًا، وأن القضايا التي تتعلق بالمسلمين؛ عادةً ما يتمُّ تناولهُا بصورة سلبية، مثل هذه الأوصاف - وفقًا لبول - تشمل صورة الإسلام والمسلمين باعتبارها تُشكل تهديدًا للأمن والقيم الغربية[١]، وتفيد الباحثتان في جامعة برمنغهام: هيفاء جواد، وتَنْسين بِنْ: «أن العداء تجاه الإسلام والمسلمين يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتصوير وسائل الإعلام للإسلام أنه: بربريَّة، وغير منطقي، وبدائي، وشهواني»[٢]، ويستشهد كل من يوليا إغوروفا وتودور بارفيت؛ بباحثَين

(1) Poole، E «Islamophobia». In Cashmore، Ellis. Encyclopedia of Race and Ethnic Studies. Routledge. (2003).. pp. 215–219.

(2) Tansin Benn and Haifaa A. Jawad: «Muslim Women in the United Kingdom and Beyond: Experiences and Images». Brill Publishers، (2004). p. 165.

أوروبيين ذكرا أن العبارات المستخدمة في وسائل الإعلام مثل: «الإرهاب الإسلامي»، و«التفجيرات الإسلامية»، و«الإسلام العنيف» قد أَنتجت نظرة سلبية عن الإسلام(١).

ونشرت «وكالة الأناضول» التركية تقريرًا عن «ازدياد ظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا جرَّاء صعود داعش»، نقلت فيه عن مسعود شاردجره - رئيس لجنة حقوق الإنسان الإسلامية (مركزها بريطانيا) - أنَّ الأعمال التي يقوم بها تنظيم داعش، وضعت المسلمين في العالم في موقف حرِج، مؤكدًا أن العداء ضد الإسلام لم يقف أبدًا، وأنه كان موجودًا حتى قبل أحداث ١١ من أيلول في الولايات المتحدة الأميركية، ولكن حوَّلت تلك الأحداثُ العداءَ إلى أمر مشروع، وأوضح شاردجره أن العديد من المسلمين تعرضوا لاعتداءات مختلفة من قبيل: خلع حجاب النساء، والبصق عليهم، وتسميتهم بالإرهابيين، مشددًا على أن ظاهرة الإسلاموفوبيا؛ لم تَغِبْ عن أجندة وسائل الإعلام التي تَعرض يوميًّا خبرين أو ثلاثة تحوي مواد تخلق انطباعاً سلبياً تجاه المسلمين أو الإسلام، وقال شاردجره: بحسب دراساتنا، فإن الإسلاموفوبيا أصبح بعد اليوم ثقافة، إذ نرى يوميًّا في وسائل الإعلام العديد من العبارات والجمل المناهضة للمسلمين والصادرة من الشرطة أو القوات المسلحة، أو حتى موظفي مؤسسات كالإدارات المحلية، وليس فقط من اليمينيين المتطرفين، حيث فتحت موجةُ الخوف التي خلقتها وسائل الإعلام، وربْطُ مفهوم العنف بالمسلمين جرَّاء الهجمات التي يقوم بها تنظيم داعش الإرهابي، التي تصدرت

(1) Yulia Egorova and Tudor Parfitt «Jews، Muslims، and Mass Media: Mediating the 'Other'». London: Routledge Curzon. (2003). pp. 2-3.

أجندات الدول الأوروبية عدة شهور، البابَ مجددًا أمام ظاهرة الإسلاموفوبيا، وزيادة الضغوط على المسلمين، ويضيف التقرير التركي: وزادت أعمال داعش وانعكاساتها في وسائل الإعلام، من الاعتداءات ضد المسلمين القاطنين في الدول الأوروبية، إضافة إلى أنها أذكت مفهوم الإسلاموفوبيا، حيث قامت الشرطة في بعض الدول بممارسة ضغوط نفسية على المنظمات الأهلية المسلمة في تلك البلدان، ولفتت مجموعة تُدعى «تيل ماما»، التي تراقب الاعتداءات ضد المسلمين في بريطانيا، الانتباهَ إلى ارتفاع الأعمال العدائية ضد المسلمين، في ضوء التطورات في العراق وسوريا، إذ أشارت المعلومات التي نشرتها المجموعة، إلى أن أكثر من (٢٠٠) حادثةِ اعتداءٍ نُفِّذَتْ ضد المسلمين في بريطانيا عقب نشر مقطع الفيديو بإعدام داعش للصحفي الأميركي جيمس فولي، فيما شهد شهر يناير من العام الحالي؛ (١١٢) حالة اعتداء مماثلة، وأشارت المجموعة أن هذه الأرقام لا تعكس الأرقام الحقيقة للاعتداءات، لأن أكثر المواطنين المسلمين الذين تعرضوا للاعتداءات في بريطانيا؛ لا يصرحون بما تعرضوا له نتيجة الخوف، ووفقًا للمعلومات التي أعلنتها شرطة العاصمة لندن، فإن (٥٠٠) اعتداء ضد المسلمين ارتُكب في لندن عام (٢٠١٣)، فيما كان عددها (٣٣٦) في عام (٢٠١٢)، و(٣١٨) في عام (٢٠١١)، واعترفت بعضُ وحدات الأمن في إنكلترا وويلز؛ بعدم تسجيلها لبعض حوادث الاعتداء ضد المسلمين، لذا فإن العدد الحقيقي لها أكثر من المعلَن.

وفي النمسا: تُعد الخطط والأفكار لحظر الرموز الدينية والدعاية لها، إضافةً إلى زيادة المراقبة المطبَّقة على محاضن الناشئة، والطلب من مدرسي التربية الإسلامية في المدارس بالتبليغ عن الطلاب الذين يحملون أفكاراً متطرفة، كجزءٍ من أعمال ناجمة عن المفهوم الذي بدأ بالظهور تجاه المسلمين بسبب

هجمات داعش، ويشعر قرابة (٥٠٠) ألف مسلم في النمسا؛ بالقلق من تحول التدابير التي ستتخذ في إطار مكافحة داعش والتطرف، إلى مكافحة للمسلمين وعداءٍ لهم، حيث وقعت خلال الشهر الماضي ثلاث حالات اعتداء على محجبات، فضلاً عن اعتداءين عنصريين على أحد المساجد والمدارس الدينية قيد الإنشاء، وقال محمد طورهان رئيس الاتحاد الإسلامي في العاصمة فيينا: إن الاعتداءات الجسدية وبالكلمات تجاه المسلمين، زادت في الفترة الأخيرة، بسبب الأخبار السلبية تجاه المسلمين في وسائل الإعلام.

وأوضح علي جان رئيس الاتحاد التركي بالنمسا؛ أن الاعتداءات ضد المسلمين زادت نتيجة نشر أخبار تسيء للمسلمين في وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة في الفترة الأخيرة بالنمسا والتأثيرات الناجمة عنها، مشددًا على ضرورة عدم خلق مُناخٍ للضغط على المسلمين تحت مسمى التدابير الأمنية.

أمَّا في الدنمارك؛ فقد تسبب طرد تنظيم داعش معتنقي الديانات غير المسلمة - خاصة المسيحيين - من المُوصل بشمال العراق (وهو الخبر الذي تَصدَّر وسائل الإعلام اعتبارًا من الصيف)؛ في زيادة الاعتداءات ضد المسلمين في وسائل التواصل الاجتماعي، في حين زادت الأخبار حول الأشخاص الذين ذهبوا إلى سوريا للقتال؛ النظرةَ السلبية تجاه المسلمين في عموم البلاد، وذكر أحمد دنيز رئيس الجمعية الإسلامية في الدنمارك؛ أن هجمات تنظيم داعش وجهت أنظار المجتمع بشكل كثيف نحو المسلمين، مشددًا على ضرورة تحرك المسلمين والعقلاء فيما يتعلق بالذين يغادرون الدنمارك باتجاه سوريا للقتال، والمشاكل التي قد تَنجم عن ذلك.

وفي النرويج، توجهت الأنظار إلى المسلمين والجماعات الإسلامية

بسبب توجه بعض الشبان إلى سوريا للقتال بصفوف داعش، حيث قامت وسائل إعلام بالتركيز على رئيسي جمعيتين شبابيتين تُدعيان «بروفيتانس أمة»، و«إسلام نت»، وصنفتهما على أنهما من الجماعات المتطرفة، وبدأ المجتمع النرويجي يُظهر ردود فعل سلبية ضدَّ الأقلية المسلمة في البلد عقب أعمال داعش والإعلان عن تهديد إرهابي محتمل ضد النرويج، حيث أوضح مهتاب أفشار أمين عام الجمعيات الإسلامية في البلاد (ذو أصل باكستاني)، في تصريح له، أن ابنته تلقت إهانة من مدرسها لارتدائها الحجاب بالمدرسة(١).

وانتقد جون ريتشاردسونس في كتابه: «تشويه الإسلام: العنصرية والخطاب في الصحف البريطانية» (٢٠٠٤م)، وسائلَ الإعلام البريطانية لازدياد نشر الصور النمطية السلبية عن المسلمين، وتأجيج التعصُّب والتحيز ضدَّهم(٢)، وأجرى هذا الباحث دراسةً أُخرى (٢٠٠٩م) وجد من خلالها أن ٨٥٪ من عناوين الصحف المعتادة تعامل المسلمين على أنهم كتلة واحدة متجانسة، تُصوَّر باعتبارها خطرًا على المجتمع البريطاني(٣).

---

(١) وكالة الأناضول للأنباء، ٢١/ ٩/ ٢٠١٤م:
http://www.aa.com.tr/ar/s/395797

(2) Richardson، John E. «(Mis)representing Islam: the racism and rhetoric of British broadsheet newspapers». John Benjamins Publishing Company، (2004).

(3) Richardson، J. E. «'Get Shot of the Lot of Them': Election Reporting of Muslims in British Newspapers.» Patterns of Prejudice 43، (2009). (3-4): 355-377.

وجاء في دراسة عن نموِّ الإسلاموفوبيا قام بها ثلاثة من الأكاديميين في النرويج عام (٢٠١٢م)، ونشرتها: «المجلة العالمية للصلة بين الثقافات»[١]: «أن المسلمين في مختلف الدول الأوروبية كفرنسا وألمانيا وبريطانيا، يعانون من أعلى درجات الإسلاموفوبيا في الإعلام»، وقد عُرف بعض الصحفيين بكتاباتهم المهينة والمحرضة ضد المسلمين، كالصحفية الإيطالية أوريانا فالاتشي Oriana Fallaci، وقد صدَّرت صحيفة «الجارديان» خبر وفاتها في ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦م، بوصفها: «مشهورة بسمعة سيِّئة لاتصافها بالإسلاموفوبيا»[٢].

والإنصاف يقتضي أن نذكر - أيضًا - أن بعض وسائل الإعلام تعمل صراحة ضد ظاهرة كراهية الإسلام، وتعمل بعض المؤسسات الحكومية أو الدولية على إصدار تقارير دورية لرصد ظاهرة الإسلاموفوبيا وتقديم المقترحات لمواجهتها، كما توجد مؤسسات مستقلة في هذا المجال، كمؤسسة «العدالة والدقة في الأخبار»[٣]، ومقرها في نيويورك، حيث أصدرت بعض التقارير في هذا المجال، كما قامت أيضًا بإنشاء: «منتدى مكافحة الإسلاموفوبيا

---

(١) تُصدرها: الأكاديمية العالمية لأبحاث الثقافات، في الولايات المتحدة:

Jonas R. Kunsta، David L. Samb، Pål Ulleberga «Perceived islamophobia: Scale development and validation» in «International Journal of Intercultural Relations»، Volume 37، Issue 2، March 2013، Pages 225–237.

(2) The Guardian، Saturday 16 September 2006.

http://www.theguardian.com/news/2006/sep/16/guardianobituaries.italy

(3) Fairness and Accuracy in Reporting، http://fair.org

والعنصرية»، الذي يهدف إلى مراقبة طريقة التغطية الإخبارية في وسائل الإعلام وإقامة حوار مع المؤسسات الإعلامية، ولا شكَّ أن هذه الجهود تدلُّ على وجود خَلل حقيقي في مسالك أكثر وسائل الإعلام عند حديثها عن الإسلام والمسلمين[١].

الهجوم على صحيفة شارلي إيبدو الفرنسية[٢]:

ما كنتُ أظنُّ أن كثيرًا من الناس سينشغلون بقضية الإرهاب كما انشغلتُ به هذه الأيام وأنا عاكف على كتابة هذا البحث، فقد جاء الهجوم على «صحيفة شارلي إيبدو» في باريس، يوم: ٧/ ١/ ٢٠١٥م، ليؤكِّد مجددًا على أن الإرهاب ليس قضية «نظرية» أو «أكاديمية» تُكتب فيها البحوث، وتقام عنها المؤتمرات، ويتناولها خَواص أهل السياسة والفكر في المجالس المغلقة؛ بل هي قضية تَمسُّ واقع الناس، وتَشغل بَالهم، وتؤثر في آرائهم ومواقفهم، وتنعكس سلبياته على تفاصيل حياتهم اليومية.

---

(١) راجع مادة «الإسلاموفوبيا» في ويكيبيديا الإنكليزية:

https://en.wikipedia.org/wiki/Islamophobia

والبحث القيِّم الذي أصدرته وزارة العمل في السويد (٢٠١١م) بعنوان: «معاداة السامية والإسلاموفوبيا»:

«Antisemitism och islamofobi – utbredning، orsaker och preventivt arbete» Uppdrag från Arbetsmarknadsdepartementet 2011.

(٢) المعلومات الإخبارية الواردة في هذا المبحث مستفادة من مواقع الأخبار العالمية على الانترنت، مثل: بي بي سي، ومؤسسة فرانس ٢٤، والعربية نت، وأخبار اليوم السويدية، وغيرها، ولم أرَ الإطالةَ بعزو كل جزئية إلى هذه المصادر المعروفة المبذولة.

إن هذا الهجوم يُظهر لنا بجلاءٍ العلاقةَ بين الإرهاب والإعلام، فكلٌّ منهما يغذِّي الآخر، فقد جاء هذا الهجوم ردًّا على الرسوم المسيئة للنبي ﷺ التي نشرتها الصحيفة المذكورة، وجرت في ذلك على سنن صحف أوروبية أخرى، واللافت للنظر أن ظاهرة الإساءة إلى النبي ﷺ وتحوُّلها إلى قضية عالمية؛ اشتهرت بعد أحداث ١١ من أيلول، حيث شهد العالم تصاعدًا في الكتابات التي تطعن في شخصية الرسول ﷺ، وصدر الكثير من المقالات والكتب في هذا، أكثرها كُتبت بدافع الغضب من الاعتداءات الإرهابية التي تمَّت باسم الإسلام، حتى إن أشهر الكتب التي صدرت بعد أحداث ١١ من أيلول يحمل عنوان: «نبي الخراب - عقيدة الإسلام الإرهابية بكلمات محمد نفسه»، وقد صدرت طبعته الأولى سنة (٢٠٠٤م)، ونُشر على نطاق واسع، وتُرجم إلى عدَّة لغات، وعنوانه يدلُّ على دوافع تأليفه، ويتأكد ذلك بالتعرف على مؤلِّفه: كريك وين، حيث إنَّه تاجر أميركي، توجَّه بعد ١١ من أيلول للعمل من خلال فريق من الباحثين على إعداد دراسات تحليلية لربط القرآن والسيرة النبوية بالعنف والإرهاب[١]، وقد أفصح المؤلف عن هذا في مقدمة كتابه، فأخبر أنَّ سعيه إلى فهم الإسلام بدأ صباح يوم ١١ من أيلول ٢٠٠١!

ولم تكد مشاعر الغضب والتعصب والانفعال تهدأ؛ حتى جاءت تفجيرات مدريد (آذار: ٢٠٠٤)، ثم تفجيرات لندن (حُزيران: ٢٠٠٥)، وبدأت مرحلة جديدة من الإساءة إلى الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، بدأتها صحيفة «يولاندس بوستن» الدنماركية، حيث قامت في ٣٠ من أيلول ٢٠٠٥م، بنشر

---

(١) راجع التعريف بكريك وين Craig Winn، وبكتابه Prophet of doom: Islam's terrorist dogma in Muhammad's own words: في «ويكيبيديا» الإنجليزية:
http://en.wikipedia.org/wiki/Craig_Winn

(١٢) صورة كاريكاتيرية للإساءة إلى النبي الكريم ﷺ، وقامت صحف أخرى في عدة دول أوروبية، كالنرويج، وألمانيا، وفرنسا، والسويد، وغيرها؛ بإعادة نشر تلك الصور، وكانت صحيفة «شارلي إيبدو» الفرنسية الأسبوعية الساخرة؛ سبَّاقة إلى إعادة نشر تلك الرسومات مع إضافة رسومات جديدة لرساميها (شباط: ٢٠٠٦)، وقد أقامت بعض الجمعيات الإسلامية في فرنسا قضية ضدَّها، لكن جاء قرار القضاء الفرنسي في (٢٠٠٧) بتبرئة الصحيفة، وجدَّدت الصحيفةُ إساءتها للإسلام ونبيه وشريعته في سنة (٢٠١١)، وفي (٢٠١٢) نشرت رسومًا مسيئة إلى النبي ﷺ بعد الهجمات التي حصلت على سفارات الولايات المتحدة الأميركية في بعض الدول المسلمة ردًّا على الفيلم الأميركي المسيء: «براءة المسلمين»، ثم في (٢٠١٣) نشرت كتابًا مصوَّرًا عن السيرة النبوية، وآخِرها في تشرين الثاني (٢٠١٤) حيث نشرت على غلافها رسمًا كاريكاتيريًّا لأحد إرهابيِّي داعش وهو يذبح من تعتبره الصحيفةُ الرسولَ الكريمَ ﷺ، تحت عنوان: «ماذا لو عاد محمد؟»، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقًا من أن الإعلام الغربي يستثمر الإرهاب للإساءة والتشويه، وإن كان يبادر إلى الإساءة أيضًا من غير أسباب مزعومة.

هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن هجوم باريس الذي نفَّذه الشقيقان: سعيد كواشي، وشريف كواشي، وأدَّى إلى مقتل (١٢) شخصًا، وإصابة (١١) آخرين، وانتهى بقتل المهاجمَين - حسب الرواية الرسمية[١] -

(١) انتشرت في وسائل التواصل الاجتماعي آراء وتحليلات عن إمكانية كون الهجوم مدبَّرًا من قِبل المخابرات الفرنسية أو غيرها، تحقيقًا لأهداف سياسية، خاصة بعد ظهور بعض التناقضات في تفاصيل الرواية الرسمية، ويبدو أن الأيام القادمة ستشهد جدلًا كبيرًا، وربما أدلة وشواهد لإثبات نظرية المؤامرة في هذه الحادثة؛ فقد نقلت صحيفة الإندبندنت =

لكننا سنُركز على ما يتعلق بموضوع بحثنا من خلال النقاط التالية:

١ - هذه الصحيفة اختارت طريق الشهرة والمال من خلال الإثارة والإساءة والتحريض، لكنَّها رغم ذلك بقيت صحيفة مغمورة، تَصدر أسبوعيًّا بواقع ستين ألف نسخة فقط، رغم أنَّ عدد سكان «الجمهورية الفرنسية» يزيد على (٦٥) مليون نسمة، كما يزيد عدد الناطقين باللغة الفرنسية في العالم على (٢٢٠) مليونًا! فلم تنل الشهرة العالمية والانتشار الواسع إلا بعد الهجوم عليها، حيث عُرفت على مستوى العالم كله، وقامت بإصدار أول عدد لها بعد الحادث (الأربعاء: ١٤/ ١/ ٢٠١٥) في ٣ ملايين نسخة - ثم أعلنت رفْع العدد إلى ٥ ملايين - وأنها ستترجَم إلى (١٦) لغة عالمية! وكانت الصحيفة تعاني من أزمة مالية حادَّة، وضعْفٍ في التوزيع، وقد فشلت سابقًا في جمع الأموال؛ فإذا بالدعم يأتيها - بعد الهجوم - من كلِّ جانب، حتى إن وزيرة الثقافة الفرنسية قرَّرت تسخير نحو مليون يورو عاجلًا لفائدة شارلي إيبدو حتى «تضمن استمرارَها».

وقد بكَّر كثير من الناس إلى محلات بيع الصحف لشراء نسختهم من أول عددٍ بعد الهجوم، فخرجوا في باريس وغيرها منذ الخامسة صباحًا، واصطفُّوا أمام تلك المحلات ينتظرون فتحها، ونفدت جميع نسخ الصحيفة في الساعات الأولى من صباح الأربعاء، وكتب مندوب صحيفة «أخبار اليوم» السويدية أنَّه تنقَّل بين المحلات بحثًا عن نسخة حتى تمكَّن من شرائها في الساعة السابعة إلا ربعًا صباحًا! وأعلنت الصحيفة عن فتح مكتب لها في المملكة المتحدة لنشر نسختها الإنجليزية.

=

(١٧/ ١/ ٢٠١٥) أن مؤسس الحزب الوطني الفرنسي جان ماري لوبان؛ صرَّح بأن الهجمات الإرهابية كانت من عمل الاستخبارات الغربية!

٢- كان الجدل حول الرسوم المسيئة في الغرب - من قَبل هذه الصحيفة أو غيرها - يدور حول حرية التعبير والصحافة، وكانت الجهات الرسمية تنأى بنفسها عن اتخاذ موقف مؤيد لها، وإن كانت تسمح بها وتعتذر عنها من منطلق الدفاع عن حرية التعبير لا عن الإساءة نفسها، حتَّى إن أحد ممثلي الجاليات الإسلامية في فرنسا اتصل بوزير الداخلية الفرنسي وطلب منه التدخل لمنع نشر شارلي إيبدو للرسوم المسيئة، فاعتذر له الوزير بأن ذلك ليس من صلاحيته، وطلب منه التوجُّه إلى القضاء، أما بعد هذا الهجوم؛ فالأمر أصبح مختلفًا، حيث تحولت القضية من الاعتذار بحرية التعبير، إلى الدفاع عن الصحيفة، وصحفييها، ونشاطها، وفي ذلك تأييد ضِمني لتلك الرسوم المسيئة نفسها، ونُظمت في مختلف أنحاء فرنسا مسيرات مليونية دعا إليها الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند للتنديد بالإرهاب والتمسك بالديمقراطية وحرية التعبير، سُميت بمسيرة الجمهورية، وقالت وزارة الداخلية الفرنسية إن ما لا يقلُّ عن ٣,٧ مليون شخص شاركوا فيها، وهو أكبر رقم سُجِّل في تاريخ البلاد، وتقدم تلك المسيراتِ في باريس (١١/ ١/ ٢٠١٥) خمسون زعيمًا من ملوك ورؤساء دول ورؤساء حكومات ووزراء وسفراء، إضافة إلى مئات الشخصيات العالمية المعروفة، وقد استغلَّ بعض المشاركين تلك المسيرات لرفع تلك الرسوم المسيئة للنبي ﷺ، تعبيرًا عن الغضب والمعاندة والتحدي لمشاعر المسلمين، مع أن تلك المسيرة قد شارك فيها بعض الشخصيات الإسلامية من الملوك والرؤساء وغيرهم، والدَّرس الذي يجب أن لا ننساه من هذه الحادثة المؤلمة؛ هو كيف يدفع الإرهاب بقضية مذمومة منبوذة إلى الواجهة، فيجعلها قضية مبادئ وقيم وهوية، وكيف يجعل من الظالم مظلومًا، ومن المعتدِي معتدًى عليه!

٣- حماقة الإعلام وحماقة الإرهاب زادَتا - معًا - ظاهرة الإسلاموفوبيا، فزاد الخوف والريبة عند الغربيين من كل ما يمُتُّ إلى الإسلام بِصلة، وبدأت سلسلة المضايقات والاعتداءات على المسلمين ومساجدهم في فرنسا وغيرها، وكان من عناوين موقع (فرنسا ٢٤) الإخباري (٨/ ١/ ٢٠١٥): «انفجار في مطعم بوسط شرق فرنسا وتعرُّض عدد من المساجد لهجمات»، وفي (١٦/ ١/ ٢٠١٥): «مخاوف من تنامي العداء ضد المسلمين بفرنسا بعد مقتل مغربي طعنًا بالسكين»، وقد صدق المفكر والكاتب الفرنسي الشهير آلان غريش - رئيس التحرير السابق لدورية «لوموند ديبلوماتيك» إحدى أشهر الدوريات السياسية في العالم - عندما قال: إن الحادثة البشِعة التي وقعت في صحيفة شارلي إيبدو؛ ستؤجِّج حتمًا ظاهرة العداء للإسلام في العالم عامة، وفي أوروبا خاصة، وهي الظاهرة المؤجَّجة بالفعل حتى قبل هذه الحادثة، وما مظاهرات ألمانيا ضد الإسلام ببعيدة عنا، وأضاف: إنَّ الإعلام العالمي سيُسارع بكل تأكيد باتهام الإسلام ووصْمه بالإرهاب ومعاداة الغرب كالعادة، لقد كانت الأوساط الصحافية الفرنسية كلُّها مشغولة قبل هذه الحادثة بأيامٍ برواية الكاتب الفرنسي ميشال هوليبيك «الاستسلام»، والتي يتنبأ فيها بوصول حزب إسلامي لسُدة الحكم في فرنسا، مما يعني انشغالَ الفرنسيين بظاهرة «الإسلاموفوبيا»[١].

---

(١) المقابلة مع آلان غريش Alain Gresh نشرتها صحيفة «رأي اليوم» التي تَصدر في لندن، بتاريخ: ٧/ ١/ ٢٠١٥م:

http://www.raialyoum.com/?p=201672

ومن هنا يظهر لنا أن «الإسلاموفوبيا» لا يقف عند الجانب الفكري والنظري والنفسي، بل يتحول إلى موقف وتصرف، ويعبَّر عنه من خلال سلوكٍ مسيءٍ قد يبلغ من العنصرية والعدوانية درجةَ الاعتداء بالقتل، فالمسلمون في الغرب اليوم يعانون من آثارِ ونتائجِ ظاهرة الإسلاموفوبيا في تفاصيل حياتهم اليومية، سنشير -لاحقًا - إلى بعض صورها إن شاء الله.

جناية ثالوث «الإرهاب والإعلام والإسلاموفوبيا» على مسلمي الغرب:

تبيَّنَتْ لنا العلاقة بين الإرهاب والإعلام، وتغذية أحدهما الآخر، وتقويتهما لظاهرة الإسلاموفوبيا، وهذه الثلاثة مجتمعة؛ يدفع ثمنَها ويكتوي بنارها ويعاني من مساوئها: المسلمون في الغرب، حيث يجدون تبِعاتها وآثارها في تفاصيل حياتهم اليومية، ويمكننا الإشارة إلى بعض جوانبها بإيجاز:

١ - صعود اليمين المتطرف في عموم الدول الغربية، حتى تمكَّنت بعض الأحزاب المعادية للإسلام والمسلمين صراحةً من الحصول على مقاعد في البرلمانات خلال العقد الأخير، وهو أمرٌ بدأ يُقلق الأحزابَ المعتدلة، بل المجتمعات الغربية كلها[(١)].

٢ - ظهور التنظيمات العنصرية المتطرفة ونشاطها الكبير من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، وتنظيمها للمظاهرات والاحتجاجات، وهذه الحركات تخصُّ الإسلام والمسلمين بعدائها، ومن أشهرها حركة «وطنيون أوروبيون ضدَّ أسلمة الغرب» (بيغيدا - Pegida) في ألمانيا،

(١) راجع على سبيل المثال: «قادة أوروبا يُهرعون للاجتماع بعد صدمة صعود اليمين المتطرف» في صحيفة الشرق الأوسط، ٢٦/ ٥/ ٢٠١٤م:
http://aawsat.com/home/article/104946

وهي حركة نشطة تنظم مظاهراتٍ مناهضةً للمسلمين بانتظام في مختلف المدن الألمانية، ويبدو أنها ستتوسع في أوروبا، فقد بدأت الحركات المستنسَخة من حركة بيغيدا بالظهور في النمسا وسويسرا والدول الإسكندنافية وإسبانيا وفرنسا، لتصبح بذلك تيارًا أوروبيًّا عامًّا، وبعد النرويج ظهرت حركة Pegidadk يوم ١٩/ ١/ ٢٠١٥ في كوبنهاغن، وتمَّ الإعلان عن مظاهرة في فيينا يوم ٢/ ٢/ ٢٠١٥م، وعن أخرى يوم ١٦/ ٢/ ٢٠١٥ في سويسرا، وأُعلن في مدريد عن تجمُّع قادم أمام المسجد الكبير، وأَطلق الكاتب رينو كامو نسخةً فرنسية من حركة بيغيدا[١]، ومن الواضح أن هذا النشاط جاء بعد حادثة باريس.

٣- ازدياد الاعتداءات على المسلمين في أماكن العمل والميادين العامة، وهذه الاعتداءات تبدأ من إطلاق ألفاظ العنصرية والشَّتْم، وتصل إلى الضرب، وقد تنتهي بالقتل، كما زادت الاعتداءات على المساجد، حتى صار إحراقها - خلال الأشهر الأخيرة - في بلدٍ مثل السويد ظاهرة مقلقة[٢]، وقد ذكرنا كيف أن هذه الاعتداءات تزداد زيادة كبيرة عقب كل حادثة إرهابية.

---

(١) راجع التقرير المفصل عن توسع حركة بيغيدا العنصرية في أوروبا في صحيفة «زوددويتشه» الألمانية (١٦/ ١/ ٢٠١٥):

http://www.sueddeutsche.de/politik/islamfeindliche-bewegung-exportschlager-pegida-1.2305945

(٢) في عام (٢٠١١) بلغت الاعتداءات على المساجد بالتخريب والحرق والتهديد بالقنابل: نسبة ٤٠٪ من مجموع عددها في السويد، وارتفعت النسبة في عام (٢٠١٤) إلى ٦٦٪، كما في صحيفة «أفتون بلادت» السويدية، ٨/ ١/ ٢٠١٥م:

http://www.aftonbladet.se/kultur/article20123819.ab

٤- التمييز ضد المسلمين فيما يتعلق بحقهم في العمل والوظيفة، حيث يَنظر إليهم أربابُ الأعمال نظرة الريب والشك، كما أنهم يُستبعدون من وظائف لا يُمنع عنها غيرُهم من المهاجرين.

٥- التضييق على المساجد والمؤسسات والمنظمات الإسلامية، والتشديد في مراقبة نشاطاتها، ومطالبة القائمين عليها بالتواصل مع الأجهزة الأمنية لضمان محاربة الإرهاب والتطرف، وتحميلها - ولو أدبيًّا - مسؤوليةَ تَورُّط بعض الأشخاص من رُوادها في عملية إرهابية.

٦- التضييق على المدارس الإسلامية، ومطالبة العنصريين بإغلاقها، واتجاه الحكومات إلى التشديد في مراقبتها والتحكم في مناهجها.

٧- محاولة منع الدعم الذي تقدمه الدول الإسلامية للمسلمين في الغرب، وبخاصة المملكة العربية السعودية، حتى لقد رفضَت الحكومة النرويجية منْحَ تصريحٍ لتمويل بناء مسجد من قِبل الحكومة السعودية[1].

٧- وأسوأ آثار الإرهاب وأخطرها على الوجود الإسلامي في الغرب: التدخل السافر في تفاصيل عقائد المسلمين وشعائرهم والتزامهم الديني، ولأهمية هذه القضية أفردُها بالمبحث التالي، وبالله التوفيق.

(1) http://www.svt.se/ug/norska-regeringen-sager-nej-tack-till-saudis-ka-pengar

من محاربة الإرهاب إلى التدخُّل في خصوصية الالتزام الدينيِّ للمسلمين:

العالم الغربي يضمُّ بين جَنباته مختلف المِلل والنِّحَل والطوائف والجماعات التي تنتمي إلى أديان وعقائد وأفكار وفلسفات متناقضة ومتنافرة، تعيش جماعاتُها وأفرادُها في ظِلِّ نظام علمانيٍّ يضمن حريةَ الأديان وممارسةَ الشعائر، ويعامل الجميعَ على أساس حقِّ المواطَنة، دون التدخل في تفاصيل حياتهم، أو عقائدهم، أو موقفهم من أتباع الأديان الأخرى من حيث الحكم بكفرهم أو خلودهم في النار أو التميُّز عنهم بتقاليد الزواج والأعياد وسائر العلاقات الاجتماعية؛ فتجد هندوسيًّا بلحية كثَّة وعمامة ضخمة يعمل ضابط شرطة أو سائق حافلة، وبعض الطوائف النصرانية - مثل: شهود يَهْوَه - يمُنع أولادها من المشاركة في أعياد الميلاد التي تنظمها المدارس الحكومية، وكان المسلمون يَحظَون - بشكل عام - بنفس حقوق سائر المواطنين، ويمارسون دينهم دون مضايقات، حتى تغيَّرت الأحوال في العقدين الأخيرين مع نمو ظاهرة الإسلاموفوبيا واتخاذ قرارات مؤذية للمسلمين ومشاعرهم، مثل حظر ارتداء الحجاب في الأجهزة والمدارس الحكومية في فرنسا، ومنع النقاب فيها، ومنع بناء المآذن في سويسرا، ونحو ذلك من الإجراءات القابلة للمناقشة والتغيير، لكن الأمر تطوَّر أخيرًا إلى إحراج المسلمين فيما يتعلق بتفاصيل عقيدتهم وشريعتهم، وإلى الإلحاح عليهم في ذلك بنحوٍ يشابه مطالبتهم بالتخلِّي عن دينهم حتى يكونوا مواطنين صالحين!

في ضوء خبرتي بموقف أوروبا من الإسلام - حيث أقيم فيها منذ عشرين سنة - أستطيع القول إن التناول التفصيلي لعقائد الإسلام وأحكام الشريعة لم يكن إلا في دائرة الدراسات الاستشراقية أو الأكاديمية، وبين النخبة من المثقفين والمتخصصين، وأعني بهذا الكلام: عقيدة المسلم في غير المسلمين من حيث

كفرهم وضلالهم ومصيرهم الأُخروي، وفي أحكام سلوكية كالموقف من الحجاب والاختلاط والموسيقى والرقص والمشاركة في الأعياد الدينية لغير المسلمين، وفي أحكام تَخصُّ دولَ المسلمين ومجتمعاتهم مثل الحدود والعقوبات المقررة في الشريعة الإسلامية، فقد صار تناول مثل هذه «التفاصيل» ظاهرة لافتة للنظر منذ اعتداءات ١١ من أيلول، حيث بدأ الحديث في وسائل الإعلام العامة عن مصدر الإرهاب ومنبعه، فصار بعضهم يتهم الإسلام نفسه، وبعضهم يتَّهم اتجاهًا دينيًّا معيَّنًا، ويتركز الكلام في هذه الحالة على «الدعوة السلفية» عمومًا، و«الدعوة الإصلاحية» للإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعضهم يوجِّه الاتهامَ إلى المملكة العربية السعودية، لكونها تلتزم بمنهج الكتاب والسنة، وتحكيم الشريعة الإسلامية من خلال القضاء وأنظمة الدولة.

ونستطيع أن نؤكد التأثير المباشر للإرهاب في دفع الإعلام العربي للخوض في خصوصياتِ تَدَيُّن المسلمين؛ من خلال الإشارة إلى التقرير الذي عرضته قناة بي بي سي البريطانية بعد أيام من حادثة باريس، بعنوان: «بعد باريس: النضال من أجل إسلام بريطانيٍّ»[1]، وقد بدأ التقرير بالتذكير بأن ما حدث في باريس كان من قِبل شباب وُلدوا ونشأوا في فرنسا، ثم تَساءل: «ما الذي يجعل بعض المسلمين يُسوِّغون قتْلَ مواطنيهم باسم الإسلام؟ »، وبدلًا عن البحث عن جوابٍ منطقي لهذا السؤال يستند إلى حقائق علمية وواقعية في ربط ظاهرة العنف والإرهاب بفكر منحرف معيَّن، وجماعة إسلامية معينة؛ فإنه لجأ إلى الجواب من خلال التعميم والمقارنة بين اتجاهين بين مسلمي بريطاني،

(1) BBC، Panorama، The Battle for British Islam، 12/01/2015; http://www.bbc.co.uk/iplayer/episode/b050nj0z/panorama-the-battle-for-british-islam

الأول: محافظ متديِّن، **والآخر**: بعيد عن الالتزام التفصيلي بالأحكام الشرعية، وخلص التقرير - بعد ذِكر أحكامٍ تفصيلية تخص المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم - إلى أن الاتجاه المتديِّن المحافظ يمثِّل: «التطرف غير العنيف» Non-Violent Extremism، أي الاتجاه الذي يرفض العنفَ والإرهاب، لكنه في الحقيقة خُطوة أُولى إلى العنف والإرهاب[1].

هذا التقرير يمثل نموذجًا إعلاميًّا للحرب التي أعلنها رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون ضد «التطرف غير العنيف»، وذلك في خطابه في «الأمم المتحدة» (٢٥/ ٩/ ٢٠١٤)، فذكر أن هزيمة أيدلوجية التطرف؛ تتطلب مواجهة جميع أشكال التطرف، ومنها: التطرف غير العنيف. وأن حكومته ستتخذ كل الوسائل الممكنة في هذا المجال، مثل: منع دعاة الكراهية من دخول بريطانيا، وحظر المنظمات التي تُحرض على الإرهاب في الداخل والخارج، والعمل على إزالة المواد المنشورة في (الإنترنت) التي تحرض على الإرهاب، وإيقاف التحريض على الكراهية والتعصب في المدارس والجامعات، وقال: «لا يجوز أن نقف مكتوفي الأيدي ونسمح بأي شكل من أشكال التطرف غير العنيف،

(١) وهذا ما نستطيع أن نسميه باصطلاح أهل المنطق: «العنف بالقوة لا بالفعل»، ويَلزم من هذا أن يُنظر إلى كل متدين محافظ بأنه مشروع عنف وإرهاب وتفجير وعملية انتحارية! ونحن لا ننكر أن بعض الدعاة الإسلاميين يمارس هذا السلوك، حيث ينكر العنف والإرهاب، لكنه يقدِّم خطابًا يشجع هذا الاتجاه وينميه ويدعمه، وبعضهم يلجأ إلى الإنكار «تقيَّة» حتى يتمكن من نشر دعوته ولا يلاحَق من قبل الجهات الأمنية، وهؤلاء يمكن رصدُهم وتصنيفهم من خلال الاطلاع على خطابهم واهتماماتهم ومصادر ثقافتهم ومواقفهم السياسية وعلاقاتهم بالشخصيات والتنظيمات الإرهابية أو رفضهم لإدانتها، وهم - بالتأكيد - يمثلون اتجاهًا معينًا ومحددًا بين المسلمين في الغرب، فلا يجوز التعميمُ واتهامُ الاتجاه الإسلامي المحافظ كلَّه بتلك التهمة الخطيرة.

نحن بحاجة إلى القول إن نبوءات الحرب الدينية العالمية، وتأليب المسلمين ضد بقية العالم؛ هذه الأمور هي هُراء، يحتاج المسلمون والحكومات في جميع أنحاء العالم إلى استعادة دينهم من هؤلاء الإرهابيين المرْضَى، نحن جميعًا بحاجة إلى مساعدتهم في برامج لتوجيه الشباب بعيدًا عن هذه العقائد السامة، ونحن بحاجة إلى أقوى تركيز دولي ممكن لمعالجة هذا الفكر، وهذا هو السبب أن المملكة المتحدة تدعو - هنا في الأمم المتحدة - إلى توصيف جديد خاص عن التطرف»[1].

ما اقترحه ديفيد كاميرون صحيح؛ إنِ استُخدم فِعلًا في محاربة الإرهاب من جذوره، وقطْع الطريق على مُرَوِّجيه والمشجعين عليه، لكن يظهر لنا من خلال تقرير بي بي سي أنه سيتمُّ تنفيذ هذا المقترح تنفيذًا خاطئًا، مما قد يؤدي إلى نتيجة عكسية، فـ: «المتدِّين المحافظ» - من أيِّ دينٍ كان - قد يندفع إلى سلوكٍ غيرِ مَرْضيٍّ عندما يشعر أنَّ نفسَ تديُّنَه مستهدَف بالتضييق والتمييز والملاحقة.

هذان الاتجاهان المذكوران في التقرير؛ موجودان في المجتمعات الإسلامية أيضًا، فالمسلمون على درجات متفاوتة في الالتزام الديني، فبعضهم يحرص على الالتزام التفصيلي بجميع أحكام الشريعة، وقد يُشدِّدُ على نفسه في ذلك، وبعضهم يترخَّص ويتساهل، حتى إنه قد يرتكب ما هو من المحرَّمات القطعية عند جميع المسلمين، كالتعامل بالربا وشرب الخمر أحيانًا، ومع ذلك يلتزم بإقامة الصلاة غالبًا أو أحيانًا، وبصيام رمضان، وغيرها من الواجبات، وإنَّ جعْلَ هذا التصنيف معيارًا لمعرفة دوافع الإرهاب؛ خطأ منهجي لا يستند إلى حقيقة

(1) https://www.gov.uk/government/speeches/pm-speech-at-the-unge-neral-assembly-2014

علمية أو واقعية، فنحن نجد أنَّ أشدَّ الاتجاهات الإسلامية المناهضة للعنف والإرهاب هو الاتجاه «السلفي»، وهو اتجاه محافظ، لكنه لا ينزع إلى استخدام الدين لأغراض سياسية، ويُعَظِّم أمر سفْك الدماء، ويَعُدُّ كلَّ سلوك عنيف خارج إطار الدولة من الإرهاب المذموم، وقد استطاع هذا الاتجاه أن يدعم موقفه هذا من خلال الاستدلال بالقرآن والسنة وآثار السلف، وقدَّم خلال العقدين الأخيرين إنتاجًا علميًّا ودعَويًّا كبيرًا لترسيخ دعوته القائمة على رفض الإرهاب والثورات وتسييس الدين، وتصدَّر هذا الاتجاهَ علماءُ معروفون على مستوى العالم الإسلامي، أكثرهم من المملكة العربية السعودية[١]، بينما نجدُ في المقابل: أن تيارات العنف والإرهاب قد خرجت من الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال المئة السنة الأخيرة، وتبنَّت رؤيةً في تفسير الإسلام تتَّصف بالتشدُّد السياسي من جهة، والتسامح والترخُّص الديني اعتقادًا وسلوكًا من جهة أُخرى، وقد أثبتت الدراسات التوثيقية المفصَّلة أنَّ هذه الحركات تمثِّل بأدبياتها ومقولاتها اتجاهًا عقائديًّا ومنهجيًّا مخالفًا ومناهضًا للاتجاه السلفي[٢]، لهذا كلِّه فإنه ينبغي توجيهُ الجهود لمواجهة «التطرف غير العنيف» باعتباره اتجاهًا فكريًّا محددًا، سواء استَخدم الدينَ (كما هو حال المتطرفين الذين يمثلون الجَناحَ الدعائي لفكر القاعدة وداعش وغيرها من التنظيمات الإسلامية الإرهابية) أو لم يستخدمه (كما هو الحال بالنسبة للتيارات اليمينية والعنصرية

(١) راجع: «موقف المملكة العربية السعودية من الإرهاب: دراسة شرعية علمية وثائقية» لمعالي الدكتور سليمان بن عبد الله أبا الخيل، الرياض: ٢٠٠٤م.

(٢) راجع في هذا: «التفسير السياسي للدين» للعلامة وحيد الدين خان، و«التفسير السياسي للإسلام» للعلامة أبي الحسن الندوي، دراسة وتعليق: عبد الحق التركماني، دار البشائر الإسلامية، بيروت: ٢٠١٤م.

المتطرفة في الغرب، التي تُوفِّرُ الأرضيةَ الخَصبة للاعتداء الجسدي على المواطنين المسلمين في أوروبا).

إن هذا المفهوم الخاطئ لأصل العلاقة بين الإرهاب والتدين المحافظ؛ سيؤدي إلى تفجير صراعٍ بين المسلمين أنفسهم، حيث ستتجه المؤسسات الحكومية والإعلام إلى دعم وإبراز «المسلمين الليبراليين» مقابل «المسلمين المحافظين»، ونتيجةً لهذا سيشعر المحافظون بالعُزلة والتمييز، وسيجد فيهم «المتطرفون غير العنيفين» بيئةً صالحةً لبثِّ أفكارهم والدفعِ بهم في طريق العنف من التنظير حتى التنفيذ، ولقد استخدم تقرير بي بي سي هذه السياسة – بقصد أو بغير قصد – ولجأت إليها أيضًا صحيفة «الإنديبندنت» (١٨/ ١/ ٢٠١٥) عندما أشادت بتقرير بي بي سي، وأكدت– استنادًا إلى شهادة أربعة من المسلمين الذين لا يمثلون أيةَ مرجعية علمية أو دينية أو اعتبارية للمسلمين في بريطانيا – على أن «التطرف غير العنيف» يتمثل في «نسخة مُسَيَّسة من الإسلام السني المتزمت الذي يهيمن على المملكة العربية السعودية، والتي تم تصديرُها إلى بريطانيا والعالم على مدى عقود»، لهذا عبَّرَتْ عن هذا الاتجاه بـ: «السلفية الوهابية»[1].

فهْمُ هذه النقطة الفارقة الدقيقة حول الخطأ المركزي في معرفة العلاقة بين الإرهاب والتديُّن؛ سيُعيننا على فَهْم سببٍ أساسٍ من أسباب إصرار الصحافة الغربية على ربط الإرهاب– تنظيم «داعش» تحديدًا – بالمملكة العربية السعودية التي تأسست على مبادئ دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب

(1) http://www.independent.co.uk/voices/the-british-muslims-not-afraid-to-fight-extremism-9985531.html

الإصلاحية[١]، رغم اعتراف تلك الصحافة بعداء «داعش» الشديد للسعودية[٢]، وعلمها أيضًا بموقف علماء المملكة من الإرهاب، وجهود حكومتها في محاربته في الداخل والخارج.

هذا الخطأ المركزي هو الذي أدَّى مؤخَّراً - بعد هجوم باريس - إلى «تركيز الاهتمام على صعود السلفية في أوروبا» كما تقول صحيفة «ذا ويك» البريطانية، وتضيف: «وصف سورين كيرن من «نيويورك ديلي نيوز» السلفيةَ بأنها: الحركة الإسلامية الأسرع نموًّا في أوروبا، واتهم القادةَ الأوروبيين بعدم مواجهة صعود إيديولوجية خطيرة على أرضهم، ويقول رئيس المخابرات الألمانية هانز جورج ماسين: ازداد عدد السلفيين الناشطين في ألمانيا من ٣٨٠٠ إلى ٦٣٠٠ في ثلاث سنوات، وقال ماسين: إن معظم المجنَّدين هم من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين (١٨-٣٠)، وهم أبناء أسر مهاجرة ناضلت من أجل التكيف مع وطنهم الجديد، وقال: السلفية توفر لهم الشعورَ بالانتماء والهدف، إنها تعطيهم الانطباع أنهم سينتقلون من الضعيف الأدنى

(١) أكتفي هنا بالإحالة على مقال واحد نُشر في صحيفة «هوفيغتون بوست» بعنوان: «لا يمكن أن تفهم داعش إذا لم تعرف تاريخ الوهابية في العربية السعودية»، كتبه الدبلوماسي البريطاني والسياسي الأوروبي البارز: ألستير كروك Alastair Crooke:

http://www.huffingtonpost.com/alastair-crooke/isis-wahhabism-saudi-arabia_b_5717157.html

(٢) لاحظ هذا التناقض في مقال باتريك كوكبرن:

http://www.independent.co.uk/voices/comment/twitter-provides-one-of-the-few-forums-in-which-saudis-can-discuss-what-they-really-feel--and-it-says-they-blame-the-clergy-for-isis-9774884.html

إلى القوي الأعلى»[١].

إذا كانت هذه رؤية مسؤول أمني كبير؛ فلا عجب في أن تخلط الصحف الألمانية بين السلفية والإرهاب، وتجعل السلفية عنوانًا لحديثها عن الإرهاب وداعش[٢].

(1) http://www.theweek.co.uk/world-news/6073/what-is-salafism-and-should-we-be-worried-by-it (19-01-2015)
http://www.nydailynews.com/opinion/soren-kern-salafism-spreads-europe-fiddles-article-1.2071010 (09-01-2015)

(٢) نجد في الصحف الألمانية أمثلةً كثيرة على الحديث عن «السلفية» وجعْلِها عنوانًا للموضوع؛ بينما يكون المضمون عن التطرف والإرهاب وانتقال المقاتلين إلى سوريا، انظر مثلًا:
http://www.sueddeutsche.de/news/politik/innere-sicherheit-zulauf-fuer-salafisten---imkrueckt-praevention-in-den-fokus-dpa.urn-newsml-dpa-com-20090101-141212-99-01082 (12-12-2014)

وعندما يتكلم خبير الاستخبارات الألمانية بينو كوبفر عن الشباب الذين التحقوا بالتنظيمات الإرهابية في سوريا، يستخدم وصف السلفية فيقول: «الاستخبارات الألمانية تعلم أنَّ هناك ٣٢٠ سلفيًّا سافروا إلى سوريا»، رغم أنه يعترف في السياق نفسه: «السلفيون ليسوا كتلة متجانسة، كما أنَّ الكثيرين من العلماء والفقهاء في المملكة العربية السعودية لا يهتفون فرحين ومرحبين بعودة الخليفة، وبالإضافة إلى ذلك يتمتّع طلابُهم بتأثير في أوروبا أيضًا؛ ويوَصِّفون كذلك بأنَّهم ساكنون هادئون أو أصوليون، ذلك لأنَّهم لا يمارسون نشاطات سياسية، ولكن في المقابل: مَنْ يُطلَق عليهم اسمَ التيار السلفي ينظرون إلى النشاطات السياسية على أنَّها مشروعة، وهنا في هذا التيار يوجد تحوّل إلى أشكال أكثر عسكرية، إلى الربط بين الفكر الثوري والسلفي، وأخيرًا يوجد الجهاديون الذين يعتبَرون في الواقع إرهابيين على استعدادٍ لاستخدام العنف»، ومن الواضح أن كوبفر يميِّز بين اتجاهين يختلفان في موقفهما من النشاط السياسي، وأن هذا الموقف هو العامل المؤثر في التحول إلى العنف، فمن التناقض - إذن - تعميم وصفهما بالسلفية رغم هذا الاختلاف الجذري بينهما. راجع الحوار مع كوبفر في موقع «القنطرة»:
=

لم نقصد في هذا المبحث الإحاطة بهذه المسائل التي أثرناها، ولا مناقشة المصطلحات ومحاكمة الآراء والنظريات التي أشرنا إليها[(١)]، وإنما قصَدْنا بيان وتوثيق أثر الإرهاب في التضييق على المسلمين في الغرب، وإيجاد المسوغات لمحاكمتهم بالتزامهم الديني، ووضعهم في مواضع الريبة والتهمة، ولو لم يكن من مساوئ الإرهاب إلا هذا الأثر السيِّء؛ لوجب على المسلمين نبْذُه والبراءة منه، فكيف والإرهاب كلُّه شرٌّ وفساد؟!

الموقف الشرعي من الرسوم المسيئة في بلاد الغرب:

من المفيد هنا أن أذكر على وجه الاستطراد أهميةَ بيان الموقف الشرعي الصحيح من الرسوم المسيئة للنبي الكريم ﷺ وللإسلام والمسلمين، من خلال حادثة حصلت في السويد، ورغم أنها لم تكن «هجومًا إرهابيًّا» فقد تصدرت - في اليوم التالي - واجهة جميع الصحف السويدية، كان ذلك في يوم الثلاثاء ١٢/ ٥/ ٢٠١٠م، حيث استضافت جامعة أبسالا الرسامَ السويدي لارس فيلكس لإلقاء محاضرة استفزازية بعنوان: «الفنُّ لا يمكن أن يكون في نفسه شيئًا آخر غير العنف والقسوة والظلم»، واستعرض الرسومات التي خطتها

=

http://ar.qantara.de/content/lslfy-fy-lmny-hwr-m-lkhbyr-ld-lstkhbrt-llmny-bynw-kwbfr-msmwh-llmr-n-ykwn-slfy-fy-lmny

وينقل موقع «القنطرة» الألماني خبر مداهمة وحظر جمعية مسجد مِلة إبراهيم، ويتم التعبير بالسلفية والسلفيين، مع أن الخبر نفسه يَذكر أن الجمعية «كانت تدعو بصراحة لصالح تنظيم القاعدة»، انظر:

http://ar.qantara.de/content/lslfywn-wlsys-lmny-fy-lmny-lsys-lmny-llmny-tjh-lslfyyn-kthyr-mn-lshbwy-wqlyl-mn-lstrtyjy

(١) وأهمُّ ذلك مصطلح: «التطرف غير العنيف»، وهو مصطلح حديث لا بدَّ من تحديد مفهومه ودلالته، ولعل اللهَ تعالى يُيسر لنا كتابةَ شيءٍ حوله.

يده الآثمة، وزعم - كاذبًا - أنَّها تمثل الرسولَ الكريم محمدًا ﷺ، وقد حضر في تلك القاعدة مجموعة من الشباب المسلم، وقاموا بالهتاف والصياح أثناء المحاضرة، وهجم عليه بعضُهم، وحدث تضارب وفوضى في القاعة، وتدخلت الشرطة، وانتهى الأمر باعتقال بعض الشبان المسلمين، واستغلت الصحف السويدية ذلك، وجعلته موضوع الصفحة الأولى، وازداد السويديون رعبًا من المسلمين الذين يهددون حريتهم وديمقراطيتهم، وصار تصورهم عن الإسلام أكثر سلبيةً وتشويهًا.

مثل هذا الحدث يتكرر في البلاد الغربية، ومع ذلك فإن أكثر المسلمين لا يعرفون ما هو التصرف الشرعي السليم الذي يجب عليهم التزامُه، لهذا بادرنا في مركز البحوث الإسلامية في السويد إلى كتابة خلاصة مركَّزة لبيان الحكم الشرعي بدليله، وسارعنا إلى إرساله إلى كثير من الجهات الرسمية والصحف السويدية، كما نشرناه بين الجالية الإسلامية ليكونوا على بيِّنة من أمرهم، ولا يخالفوا حكمَ الله تعالى جهلاً وإهمالاً، ويتورطوا في الأعمال المشينة وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، ولقد احتوى البيان على أربع نقاط موجزة هي:

١- عندما تم الإعلان عن محاضرة لارس فيلكس؛ كان الواجب على المسلم أن لا يلتفت إليه، ولا يُبدي أيَّ اهتمام به، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، ويقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٣].

٢- من المحرمات القطعيَّة أن يذهب المسلم إلى تلك المحاضرة ليشاركهم في مجلسهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

٣- إذا افترضنا أن أحدًا من المسلمين وجد نفسَه في ذلك المكان؛ فالواجب في حقه مفارقتُه فورًا، من غير صِياح ولا سبٍّ ولا شتمٍ ولا لَكْمٍ ولا ضربٍ، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٤- ومن أحب أن يقول لأولئك القوم المسيئين كلمةً قبل أن يفارقهم؛ فعليه أن يتأدَّب بما أمره به ربُّه الكريم، فيقول لهم: (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين)، وبرهان هذا في كتاب الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

فهذه أربعة أحكام صريحة في كتاب الله تعالى تتعلق بهذه الواقعة ومثيلاتها، وهي محكمةٌ لم يدخل عليها نسخٌ كما بيَّنه المحقِّقون من العلماء، وهي لا تتعارض مع ما يجب على المؤسسات الإسلامية في الغرب من السعي في مواجهة حملات الإساءة بالطرق الممكنة، كرفع الشكاوى القضائية، والتأثير في الرأي العام من خلال الحوار والنقد البَنَّاء، كما لا تتعارض مع تنفيذ العقوبات في حكم مَن يَسُبُّ اللهَ أو رسولَه أو الدينَ في بلاد المسلمين من خلال القضاء الشرعي، فتلك العقوبات هي أحكام وتشريعات خاصة بالمجتمع الإسلامي، تنفَّذ من خلال السلطة الشرعية وأجهزتها في الدولة المسلمة فحسب.

خاتمة في ثلاثة مباحث

١ - تجنُّب أسباب تشويه الصورة؛ منهج نبوي، ومقصد شرعي دعوي:

لقد ابتُليت الدعوة في عقر دارها في المدينة، بصِنف خبيث من الناس، ألا وهم «المنافقون» الذين أظهروا الإسلامَ وأبطنوا الكفر، وسَعَوْا في كل سبيل لإيذاء النبي ﷺ والمسلمين، فقد حاكوا المؤامرات، وبثوا الأراجيف والإشاعات، واجتهدوا في بثِّ الفتنة وتفريق الصفِّ، ومع ذلك فإنَّ النبي ﷺ صبر عليهم، وعاملهم بالصفح والإعراض، ولم يمنحهم فرصةً لتشويه سمعة الدعوة وتنفير الناس عنها، ولو كان ذلك بإنزال العقوبة التي يستحقونها عليهم!

نجدُ حِكمةَ رسول الله ﷺ في معاملة المنافقين في حادثة سعْي رأس النفاق ابنِ سلول للفتنة بين المهاجرين والأنصار في إحدى الغزوات؛ حتَّى تجرَّأ على القول الذي حكاه الله تعالى في كتابه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فقال عمر رضي الله عنه: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيثَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**لا يتحدَّث الناسُ أنه كان يقتل أصحابه**»(١).

وتكرَّرَ هذا التصرفُ الحكيم من النبيّ ﷺ في موقف آخر؛ فقد كان ﷺ يوزِّعُ الغنائمَ، وإذا بأحدهم يعترضُ عليه قائلًا: يا محمدُ! اِعْدِلْ! فقال ﷺ: «**ويْلَك، ومَن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خِبْتُ وخَسِرْتُ إن لم أكن أعدل**»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دَعْني يا رسول الله أقتل هذا المنافقَ! فقال: «مَعاذَ الله أن يتحدَّث الناسُ أنِّي أقتل أصحابي، إنَّ هذا وأصحابَه يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجِرَهم، يَمْرُقون منه كما يَمْرُق السهم من الرمية»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨) و(٤٩٠٥) و(٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤). والغزوة المذكورة هي - على الصحيح من أقوال العلماء - غزوةُ المريسيع، وهي غزوة بني المصطلِق.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٣).

لقد راعى النبيُّ في هاتين الحادثتين - وغيرها كثير - سدَّ الذرائع لمفاسدَ راجحةٍ على مصلحةِ إنزالِ العقوبة بمن يستحقُّها، فيُستفاد من هذا: تركُ تغيير بعض الأمور التي يجب تغييرُها، مخافةَ أن يؤدي تغييرُها إلى أكبر منها[١]، وفيه سياسةٌ للدِّين؛ لأنه يُقال لمن يريد أن يسلم: لا تغرِّرْ بنفسك لئلا يُدَّعَى عليك كُفرُ الباطن، وفيه النظرُ لمصلحةِ عامَّة الناس وترجيحُها على مصلحة الخاصة[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: كان النبيُّ ﷺ يَكُفُّ عن قتل المنافقين مع كونه مصلحةً؛ لئلا يكون ذريعةً إلى قول الناس: إنَّ محمدًا ﷺ يقتل أصحابه؛ لأن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه، وممن لم يدخل فيه، وهذا النفور حرام[٣].

إن اعتبار مآلات الأفعال، ومراعاة نتائج التصرُّفات؛ مقصِدٌ شرعيٌّ صحيحٌ[٤]، وليس المقصود بها مخالفة النصوص الصريحة وإبطال أحكام الشريعة، فلا بدَّ من إقامة فرائض الدِّين، وأداء الواجبات، ومجانبة المحرمات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ - حسب الممكن من العلم والقدرة - لكن يجب أن يؤدَّى كلُّ ذلك على الوجه الأكمل، مع مراعاة

---

(١) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض، ٨/ ٥٤.

(٢) انظر: «التوضيح» لابن الملقن، ٢٠/ ٧٠.

(٣) «الفتاوى الكبرى» دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٨هـ، ٦/ ١٧٤. ونقله تلميذه ابن القيم في «إعلام الموقعين» دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١١هـ ٣/ ١١١، وقال: ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل.

(٤) راجع في هذا البحث الموسع: «اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات» للدكتور عبد الرحمن بن معمر السنوسي، دار ابن الجوزي، السعودية: ١٤٢٤هـ.

الزمان والمكان والأعيان، والنظر إلى مراتب أحكام الديانة ودرجاتها، فيقدَّم الأهم على المهم، والواجب على المستحب، والحرام على المكروه، ويُبدأ بالأصول قبل الفروع، وبالقطعيات قبل الظنيات، وبالضروريات قبل الحاجيات والكماليات، وبالجملة: فلا بدَّ من العلم والحكمة، والتوسط والاعتدال، والرفق والإحسان؛ حتَّى تتحقَّق المصالح، وتُدفع المفاسد، وتأتي التصرفات والأفعال على وفق مقاصد الشريعة وغاياتها، لهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الحدَّ لم يُقم على واحد بعينه؛ [إمَّا] لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التي يعلمه بها الخاصُّ والعامُّ، أو لعدم إمكان إقامته إلا مع تنفير أقوامٍ عن الدخول في الإسلام، وارتدادِ آخرين عنه، وإظهارِ قومٍ من الحرب والفتنة ما يُربِي فسادُه على فساد ترْك قتْلِ منافقٍ، وهذان المعنيان حُكِمُهما باقٍ إلى يومنا هذا، إلا في شيءٍ واحدٍ، وهو أنه ﷺ ربما خاف أن يَظُنَّ الظانُّ أنه يقتل أصحابَه لغرضٍ آخر مثل أغراض الملوك؛ فهذا مُنْتَفٍ اليومَ»[(١)].

من الواضح أنَّ هذا متعلِّقٌ بالأفعال الصحيحة في نفسها، الجارية على مقتضى العدل، الصادرة عمَّن يملك الولاية والسلطة والقوَّة؛ فكيف بالأعمال المحرَّمة لذاتها، أو لِما اقترنت بها من صفات أو أحوال، وكانت على وجه الظلم والبغي والغدر والخيانة، وصدرت عمَّن لا ولاية له؛ فلا يحقُّ له إعلانُ الجهاد، ولا تنفيذُ العقوبات؛ فلا شكَّ أنَّه يؤاخَذ على أفعاله مرَّتين، الأولى: لمباشرته الفعل المحرَّم، والثانية: لما يترتب على فعله من نتائجَ سيئة، وعواقبَ وخِيمة، إنه يؤاخذ على نتائج فعله - التي لم يقصدها - كما يؤاخذ على الفعل الذي

(١) «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد الحلواني، ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت: ١٤١٧هـ، ٢/ ٣٦٢.

قصَده، كما قال النبي ﷺ: «**من الكبائر شتْمُ الرجل والدَيه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجلُ والديه؟ قال: «**نعم، يَسُبُّ أبا الرجل، فيسُب أباه، ويسُب أمَّه، فيسُب أمَّه**»، وفي لفظٍ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل: يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[(١)]، فجعله رسول الله ﷺ سابًّا لاعنًا لأبويه بتسببه في ذلك وتوسله إليه؛ وإن لم يقصده[(٢)]، فهذا الحديث أصل في قطع الذرائع، وأن من آل فِعلُه إلى محرَّم وإن لم يقصده؛ فهو في الإثم كمَن قصده وتعمَّده، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨][(٣)].

٢ - الدعوة إلى الله مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ورسالة المسلم في الحياة:

هذه السياسة النبوية الحكيمة لا يمكن أن تُفهم إلا بمعرفة أهمية الدعوة وأنها مهمة الأنبياء والمرسلين ومَن سار على نهجهم من العلماء والمصلحين؛ فقد تحمَّل النبي ﷺ ذلك الأذى المعنوي والمادي، وصبر على المشقات والمصاعب، والتزم جانب الحكمة وضبْط النفس في جميع المواقف؛ لهدف واحدٍ فقط، ألا وهو تبليغ رسالته بأحسن الصور، وأفضل الوسائل، بحيث تحقق غايتها في بيان الحقِّ وإظهاره، وإقامة الحجة وجلائها، ليَحيى مَن حيَّ عن بيِّنة، ويَهلَك مَن هلَك عن بيِّنة، هذه مهمة رسل الله أجمعين، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وأخبر سبحانه عن صفة محمد ﷺ والغايةِ من بعْثته

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

(٢) «إعلام الموقعين» لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١١هـ، ٣/ ١٠٢.

(٣) انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال القرطبي ٩/ ١٩٣.

فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

على المسلم الحقِّ - الذي رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا - أن يُدرك أن طاعته لربِّه، والتزامه بدينه، واقتداءه بنبيه؛ يستلزم أن يجعل الدعوة إلى الله رسالته في هذه الحياة، فتكون في صدر اهتمامه، وعلى رأس قائمة حساباته ومخططاته، ليس بالقول فقط، بل في التصرف والسلوك والأخلاق أيضًا، ويتَّخذ النبيَّ ﷺ أُسوة له وقُدوة، فيلتزم بمنهاجه، ويسير على طريقته، حتى يكون من أتباعه الصادقين؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدعوة إلى الله تعالى لا تكون «على بصيرة» وهُدى ورشاد؛ إلَّا إذا كانت على منهاج النبوة.

إن قضية الدعوة وصيانتها، وبذل الجهود لاستمراريتها وتأثيرها ونجاحها؛ لا بد أن تكون من القضايا المركزية التي توزن بها الأمور، وتراعَى جوانبُها في كل موقف وتصرف ذِي بال، وقد أخبر الله تعالى عن محمد ﷺ (وهو خير الناس أجمعين) وعن أصحابه (وهم خير الناس بعد الأنبياء والمرسلين) فقال: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فإذا كان سوء الخُلق والقسوة تؤدي إلى نُفور الأتباع وتفرُّقهم بعد أن عرفوا الدعوة وأقبلوا عليها، فكيف ستكون نتيجة الدعوة القائمة على الغلو والعنف والتطرف والظلم والبغي والغدر والخيانة والفساد في الأرض؟! لا جَرَم أن الناس سيرفضونها، ويجمعون كلَّ قواهم لمحاربتها والقضاء عليها، وهذا ما يحصل اليوم ضدَّ «الإرهاب» الذي تورَّط فيه ضُلَّال المسلمين، واستغله أعداء الإسلام ووظَّفوه لتحقيق أهدافهم، أهمُّها على الإطلاق: مواجهة توسع الدعوة الإسلامية وإقبال الناس عليها في جميع أنحاء العالم.

٣- العالمُ الغربي: أمَّة الدعوة وأمَّة الإجابة:

لقد ظهر لنا من خلال الاقتباسات التي ذكرناها عن تأثير الإرهاب في الإعلام الغربي؛ كيف أن هجومًا انتحاريًّا في نيويورك، أو تفجير قطارات في مدريد أو لندن، أو قتل صحفيين في باريس؛ لا يمكن النظر إليه بأنه حادث جزئي أو واقعة معينة في هذه المدينة أو تلك، بل يتحول بتأثير الإعلام وفاعليته إلى موجِّه للأفكار والمواقف في العالم الغربي كلِّه، هذا «العالَم» ليس عبارة عن دولة أو عدَّة دول صغيرة معزولة، بل هو الجزء الأهم من العالم المعاصر فكريًّا وسياسيًّا وماديًّا، فالعالم الغربي The Western world يضم دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وكندا وأستراليا وأميركا اللاتينية وغيرها، فنحن نتحدَّث هنا عن عشرات الدول ومئات الملايين من البشر، وهؤلاء جميعًا هم في الوصف الشرعي من «أُمَّة الدعوة»، أي يجب على المسلمين أن يتوجهوا إليهم بدعوة الإسلام، تبليغًا لدين الله الحقِّ، وإقامةً للحجة، وإبراءً للذمة، وأداءً للأمانة. وليس من منهج الإسلام إعلانُ الحرب عليهم جميعًا، وإرادة الشرِّ والهلاك لهم، خاصة وأنَّ فيهم كثيرٌ من المنصفين والمعتدلين، بل فيهم كثيرٌ من المرحبين بوجود المسلمين في أوروبا، ويعبرون عن ذلك بجهودهم المشهودة المشكورة في محاربة العنصرية واليمين المتطرف، وبالدعوة إلى إنصاف المسلمين وحِفظ حقوقهم، وذلك من خلال كتاباتهم ونشاطاتهم السياسية والإعلامية والاجتماعية، ويكفي أن نضرب على هذا مثالًا واحدًا، وهو أن بعض الهيئات الإسلامية دعت إلى مظاهرة كبرى للمسلمين تنديدًا بالحركات العنصرية المتطرفة التي صار لها وجود قوي في ألمانيا خلال السَّنوات الأخيرة، فما كان من الحكومة الألمانية إلا التأييد والمناصرة للمسلمين في دعوتهم هذه، بل إنها أقدمت على خطوة استثنائية في تاريخ ألمانيا خاصة، وأوروبا عامة، حيث

انطلقت «مظاهرة المسلمين» في برلين يوم الثلاثاء ١٣/ ١/ ٢٠١٥م، تتقدمها المستشارة الألمانية أنغيلا ميركل، والرئيس يواخيم غاوك، ووزراء الحكومة الاتحادية، وذلك تعبيرًا عن رفض برلين للدعوات التي تبثُّ المخاوف مما تدعوه بـ: «الأسلمة»، وهذه الخطوة جاءت بعد أسبوع فقط من الاعتداءات التي تعرضت لها العاصمة الفرنسية باريس، وتعهدت المستشارة ميركل بحماية المسلمين، وقالت: «إنَّ الإسلام جزء من ألمانيا»، كما طالبت علماءَ المسلمين والفقهاءَ بضرورة العمل على توضيح الصورة الحقيقية للإسلام، وأن لا علاقة له بالإرهاب والعنف[1]، إن رفْض نسبة الإرهاب إلى الإسلام، وتحميل الإسلام والمسلمين مسؤولية هجوم باريس؛ كان أيضًا موقفًا صريحًا للرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند، حيث قال (٩/ ١/ ٢٠١٥): «إن المتورطين في الهجمات الأخيرة في فرنسا ليس لهم علاقة بالإسلام»، وطالب بعدم الخلط بين الإرهابيين وبين المسلمين. وأعلن مانويل فال رئيس الحكومة الفرنسية؛ أن بلاده تخوض حربًا على الإرهاب والتطرف، ولكن فرنسا لا تخوض حربًا على الإسلام والمسلمين، وصرَّح بنحو هذا عددٌ من كبار الساسة في الغرب، وبِغضِّ النظر عن كلِّ ما يمكن أن يقال عن دوافع وأهداف مثل هذه التصريحات السياسية؛ فينبغي على المسلمين أن يشكروا أصحابها، ويستفيدوا من مواقفهم في ترسيخ وجودهم في أوروبا، والمحافظة على حقوقهم، وعلى المغرَّر بهم من أبناء المسلمين أن يدركوا أن تورطهم في العمليات الإرهابية صَدٌّ عن سبيل الله ﷻ، وقطْعٌ لطريق الدعوة، وتشويهٌ لصورتها، وتنفيرٌ عنها.

---

(١) تجد خبر هذه المظاهرة في المواقع الإخبارية بالتاريخ المذكور، وما نقلناه فعن موقع الأخبار الألماني: http://www.dw.de

وعندما نتحدَّث عن «العالم الغربي» فإننا نتحدث أيضًا عن المسلمين من مواطني الدول الغربية، وهم إما من مسلمي تلك البلاد، وإما من المهاجرين إليها من بلاد الإسلام، وإما من أبنائهم الذين وُلدوا في تلك المجتمعات، فتعلموا لغتها، وتخرجوا من مدارسها، وحملوا ثقافتها، وصاروا جزءًا مهمًّا منها، إننا نتحدَّث هنا عن عشرات الملايين من المسلمين، حيث يقدَّر عددهم في دول الاتحاد الأوروبي وحدها بـ: (١٩) مليونًا، بنسبة ٣.٨٪ من مجموع السكان، ويقدَّر عددهم في أوروبا كلها - عدا تركيا - بـ: (٤٤) مليونًا، بنسبة ٦٪[1]، هؤلاء المسلمون هم «أُمَّة الإجابة» في العالم الغربي، يَشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وفيهم عددٌ كبير من الملتزمين بشعائر دينهم، وقد ضربوا أروعَ الأمثلة في إظهار الإسلام خارج أرضه بالجهود التي بذلوها في بناء المساجد وتأسيس المراكز والمؤسسات الإسلامية وإنشاء مدارس خاصة لأبنائهم، إن الإرهاب بجميع صوره، وأينما كان؛ يمثِّل إساءةً إليهم بل تهديدًا لهم، وينعكس عليهم بمزيد من المشكلات في ممارستهم اليومية لشعائر دينهم وأمور دنياهم.

(1) https://en.wikipedia.org/wiki/Islam_in_Europe#cite_note-pewforum 2011-19

التَّوصيات

يمكن طرحُ كثير من الأفكار والتوصيات لخصوص مشكلةِ تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، لكن ربما يكون التوسع فيها أمرًا غير واقعي، لذا فإنني أرى الاقتصار على توصيات محدَّدة وواقعية، يمكن تنفيذها من قبل رابطة العالم الإسلامي أو غيرها من المنظمات والمؤسسات الإسلامية الرسمية أو الشعبية، وذلك في إطار الهدف الأساس من هذا البحث؛ وهو إبراز أثر الإرهاب في تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، وانعكاسات ذلك على الجاليات المسلمة والدعوة إلى الله تعالى، لهذا أُوصي بما يلي:

١ - إبراز الآثار السيئة للإرهاب على واقع الجاليات المسلمة في الغرب، حيث تعاني من زيادة العنصرية والتمييز والاتهام والتضييق بسبب استغلال الإعلام الغربي لمشكلة الإرهاب في تحريض الناس وتخويفهم من الإسلام والمسلمين، ويمكن إنتاج أفلام وثائقية متنوعة - تُعرض في القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت - لإيصال هذه القضية إلى جماهير المسلمين بصورتها الواقعية، من خلال تقارير ميدانية، ولقاءات بالشخصيات الإسلامية وبعامة المسلمين في الغرب، لتوثيق هذا المشكلة، وبيان أبعادها الخطيرة، وتطوراتها المتلاحقة، يجب أن يكون الهدف محدَّدًا وواضحًا من هذا العمل؛ وهو إيصال رسالة إلى المسلمين عامة، وفئة الشباب منهم خاصة، تكشف عن جوانب من أضرار ومخاطر وآفات الإرهاب، وتأثير ذلك في حياة ملايين المسلمين حتى فيما يتعلق بالتزامهم الديني وحرية ممارسة شعائرهم.

٢- تنفيذ نفس الفكرة لإيصال رسالة أخرى تُظهر أثرَ الإرهاب في عرقلة مسيرة الدعوة إلى الله تعالى في الغرب، سواء من جهة نفور الغربيين من الإسلام وخوفهم من نشاط حملته، أو من جهة المشكلات التي تواجه الدعاة في حمل الرسالة وتبليغها بعد أن حوصروا - بسبب الإرهاب - في زوايا الاتهام والريبة والمراقبة والملاحقة، فالتركيز على هذين الأمرين، وإبرازهما بصورة علمية ودعوية مؤثرة -شكلًا ومضمونًا - سيكون من أسباب تحصين الشباب المسلم من التنظيمات الإرهابية؛ إن شاء الله تعالى.

٣- توجد في الغرب شخصيات وصحف ومؤسسات منصفة ومتَّزنة في موقفها من الإسلام والمسلمين، فيمكن العمل على تشجيعها والتعاون معها وإبراز جهودها العلمية والإعلامية.

والحمد لله رب العالمين.